جمال حمدان

إعداد

صلاح محمد عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
51 ش إبراهيم خليل – المطرية
ت : 22511110 -0129871237

اسم الكتاب :جمال حمدان
(رجال عشقوا مصر)
المؤلـــف : صلاح محمد عبد الحميد
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرى برنت- 0104470645
رقم الإيداع : 8960
طبعة أولى : 2018

فهرسة أثناء النشر

عبد الحميد، صلاح
جمال حمدان (سلسل رجال عشقوا مصر) / أسامة عبد الرحمن -
القاهرة.- ط1 . مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع. 2018
160ص ؛ 24 سم
تدمك : 978-977-6169-58-2
1 - الجغرافيون المصريون
حمدان جمال محمود صالح ، 1928 - 1993
أ. العنوان
923.9

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن
قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)

صدق الله العظيم
طه ١١٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

جمال حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣) قد يكون أحد المثقفين والكُتاب العرب المعاصرين، الأكثر شأنًا، والأقل حظًا وشهرة اليوم. اشتهر بكتابه المكوّن من أربعة مجلدات، والذي حمل اسم (شخصية مصر) وله العديد من الكتب والكتيبات الصغيرة، المنشورة قديمًا .

قد كان (جمال حمدان) يمثل دائمًا ما يشبه "الضمير" للمثقفين المصريين، يتذكرونه من حين لآخر، خصوصًا عندما تقسوا الحياة لدرجة يتمنى المرء معها لو كان قد خاضها من وقت بعيد، كما خاضها (جمال حمدان).

أثر (جمال حمدان) لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين مع كتاباته، وإنما هو بين السطور، وهذا هو أعمق أثرًا. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أهملت أهمية هذا النوع من التأثر. إن مجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة. هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها، ولذا فحينما يُدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون عن عدة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر من الكاتب المؤثر.

لا يمكن اعتبار الدكتور جمال حمدان مجرد أستاذ للجغرافيا السياسية استطاع أن يكشف علاقة الموقع بالبشر والتاريخ، ولا يمكن اعتبار الرجل فحسب رائدا لتحليل الشخصية المصرية ومكتشفا لأسرار تكوينها ومحددا

لنقاط قوتها وضعفها، فالرجل يمكن اعتباره دون مبالغة أو تردد واحدا من أعمدة الثقافة العربية علي مدار تاريخها وأهم مفكر عرفه العالم العربي في القرن العشرين، وهو دون ريب امتداد للعملاقة المؤسسين للفكر العربي، فالإنتاج الفكري والثقافي الذي تركه الرجل يعد ركنا أساسيا في المكتبة العربية ويظل مرجعا رئيسا لفهم المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر والعالم العربي علي مدار التاريخ الحديث.

كانت وفاته لغزا، رغم أنه اعتاد خلال حياته على فك طلاسم المكان، وربطها بالتاريخ. لم يكن دكتور جمال حمدان، صاحب كتاب "شخصية مصر" مجرد باحث في الجغرافيا، بل عاشق وفيلسوف أفنى حياته بين دفات الكتابة، حتى وُجدت جثته بشقته الكائنة في شارع أمين الرافعي بالدقي، في إبريل عام ١٩٩٣، وبها آثار حروق.

ففى هذه السطور نحاول ان نلخص حياة المفكر العظيم جمال حمدان بين الكتب والفكر والجامعة محاولين تفنيد أراءه الفلسفية التى ربط فيها فلسفة الجغرافيا بفلسفة التاريخ وبالعلوم الأخرى وتطبيق بعض أراءه على عالمنا المعاصر .

وأن نقدم خلاصة فكره للأمة ، ولشبابها ، لكى يعلموا أولاً من هو جمال حمدان ، ثم لكى يفكروا ثانياً فى أنبل صورة للاحتفال بالرجل الذى كان أحد أكبر المبشرين بالثورة ؛ وأحد أعظم المتبتلين فى حب هذا الوطن ، وأحد أبرز الكاشفين عن عبقرية الشخصية المصرية ، والواثقين بقدرتها على التغيير والثورة.

من هو جمال حمدان ؟

اسمه الكامل: جمال محمود صالح حمدان ، ولد فى قرية ناى بمحافظة القليوبية ، ترك جمال حمدان ٢٩ كتاباً و٧٩ بحثاً ومقالة ، أشهرها كتاب (شخصية مصر .. دراسة فى عبقرية المكان) ، مات شهيداً ولم يتزوج .

نشأته

تقول سطور قصة حياته أن والده كان أزهرياً مدرساً للغة العربية فى مدرسة شبرا التى التحق بها ولده جمال ، وحصل منها على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٩ ، وقد اهتم الوالد بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم ، وتجويده وتلاوته على يديه ؛ مما كان له أثر بالغ على شخصية جمال حمدان ، وعلى امتلاكه نواصى اللغة العربية ، فغلب على كتاباته البلاغة والأسلوب الأدبى المبدع .

تعليمه

وبعد الابتدائية التحق جمال حمدان بالمدرسة " التوفيقية الثانوية " ، وحصل على شهادة الثقافة عام ١٩٤٣ ، ثم حصل على التوجيهية الثانوية عام ١٩٤٤ ، وكان ترتيبه السادس على القطر المصرى ، ثم التحق بكلية الآداب قسم الجغرافيا ، وكان طالباً متفوقاً ومتميزاً خلال مرحلة الدراسة فى الجامعة ، حيث كان منكباً على البحث والدراسة ، متفرغاً للعلم والتحصل .

وفى عام ١٩٤٨ تخرج فى كليته ، وتم تعيينه معيداً بها ، ثم أوفدته الجامعة فى بعثة إلى بريطانيا سنة ١٩٤٩ ، حصل خلالها على الدكتوراه

فى فلسفة الجغرافيا من جامعة " ريدنج " عام ١٩٥٣ ، وكان موضوع رسالته : " سكان وسط الدلتا قديماً وحديثاً " ، ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته .

وبعد عودته من بعثته انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا فى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ثم رُقى أستاذاً مساعداً ، وأصدر فى فترة تواجده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى وهى : "جغرافية المدن " ، و" المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم " (المدينة المثلثة) و"دراسات عن العالم العربى" ، وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٥٩ ، ولفتت إليه أنظار الحركة الثقافية عامة ، وفى الوقت نفسه أكسبته غيرة بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة .

والذى دفعه إلى الانعزال عن المجتمع فى شقته ب- (الدقى) ، التى تتكون من غرفة واحدة حتى استشهد فيها محروقاً ، قيل وقتها أن ذلك تم عبر رجال الموساد الإسرائيلى فى مصر لمواقفه ضد إسرائيل ، وتلك على ما يبدو الحقيقة التى شارك النظام السابق فى عدم الكشف عنها وتعمد تشويهها خدمة لإسرائيل والتى كان حليفاً لها ضد بلاده .

حين تقدم (جمال حمدان) لنيل درجة أستاذ مساعد ، وأقرت اللجنة العلمية هذا الترشيح مع أستاذ جامعى آخر هو د. صبحى عبد الحكيم – وفق ما يشاع – حيث كانت هناك درجتان تقدم لهما أربعة من العاملين بالتدريس بالجامعة ، ولم يفز حمدان الأمر الذى جعله يرى فى ذلك إهانة له ولإنتاجه ، وأنه كان يجب أن تقوم اللجنة بوضع ترتيب بين المرشحين يوضح أهمية أبحاث ودراسات كل منهما . فتقدم باستقالته التى لم تقبلها

الجامعة إلا بعد عامين كان خلالهما مسئولو قسم الجغرافيا يحاولون إثناء " حمدان " عن قراره دون جدوى ، ومنذ ذلك الحين فرض " حمدان " على نفسه عزلة اختيارية عن الناس ؛ حيث لم يكن يستقبل أحداً فى منزله، وتفرّغ لدراساته وأبحاثه ، حتى جاء يوم ١٦ أبريل ١٩٩٣ حين احترق داخل شقته بفعل عملاء الموساد فى مصر زمن حسنى مبارك !! .

مثلما عاش إذن .... في صمت وعزلة، رحل جمال حمدان في صمت وعزلة. صحيح، تناولت رحيله المأساوي، وطرفاً من سيرته وعلمه بعض الأقلام في الأيام التالية لوفاته - مختنقاً بالغاز - وصحيح أن البعض ألقى باللوم على الزمان، وعلى المكان ،وعلى الوطن الذي أنجب (حمدان) لأنهم نسوه، وأغفلوا دوره وفكره، فمات كمداً قبل أن يتسرب إليه الغاز، أو يسربه عملاء إسرائيل ، ورحل في موكب لا يتعدى مائة شخص من تلاميذه وأقربائه. وصحيح أيضاً أن أحدهم قد همس باكياً في تلك الجنازة، بأنها جنازة تليق "برجل شريف"، لأنه لو لم يكن "عالماً" وكان راقصة أو "عالمة" - بلغة العصر - لكانت الجنازة أكثر حرارة، وعدداً صخباً.

صحيح... بيد أن كل هذا، لم يقترب - في تقديرنا - من الرجل الذى رحل عنا حق الاقتراب.. إذ إننا نزعم، أن أغلب من كتب (ومن لم يكتب بالطبع) عن الرجل لم يقرأ له، أو على أحسن تقدير لم يقدمه لنا كما يجب أن يقدم. لم يقدم فكره، ورؤيته، وقضاياه الأساسية التي ظل مدافعاً عنها، متمسكاً بها ذلك الفكر وتلك القضايا التي أجبرته على أن يتوارى خلف جدران منزله، متحصناً به في ـزمن الردة) والعجزة، فصار رهيناً لمحبسين أحلاهما مر (محبس المنزل) الذي لا يسمح فيه لأحد أن يزوره،

إلا ناشر كتبه والبواب، وبعض أخوته، و(محبس العجزة) وأنصاف الرجال من المسئولين والمثقفين، ومن تسيد مقاعد السياسة والثقافة في الثلاثين عاماً الماضية من عمر الوطن، والتي قضاها (حمدان) معتكفاً زاهداً متشابهاً مع أبي علاء المعري في عصره. بيد أن "حمدان" جعل من محبسيه هذين قوة هائلة للتغيير من خلال العلم والمعرفة، والكتابة الموسوعية عن مصر والعروبة والإسلام. لقد صار "المحبسان" عند حمدان انطلاقة نحو الأفضل والأثرى من الثقافة.

إن "رهين المحبسين" العصري – جمال حمدان – احتج بلغته الخاصة على عصر الانحطاط العربي، والتراجع المصري، فقدم كتاباته الفذة، عن الأرض، والإنسان، والحضارة. ويخطئ من يظن أن كتابات جمال حمدان تقف فقط عند (شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان) بأجزائها الأربعة. فللرجل إسهاماته الأخرى الهامة، والجديرة بالتسجيل. صحيح أن (شخصية مصر) هو أنضجها وأعمقها إلا أن ثمة تراثاً ضخماً يقف خلف (حمدان)، متحدثاً باسمه، متحدياً للثلاثين عاماً من التراجع الحضاري العربيَ والمصري السابقة على رحيله المأسوى.

إسهامات جمال حمدان الفكرية

ولنتذكر فقط هذه الإسهامات لجمال حمدان:

- دراسات في العالم العربي – ١٩٥٨.
- نمو وتوزيع السكان في مصر – ١٩٥٩.
- المدنية العربية – ١٩٦٣.
- بترول العرب دراسة في الجغرافيا البشرية – ١٩٦٤.
- أفريقيا الجديدة دراسة في الجغرافيا السياسية – ١٩٦٦.
- اليهود – أنثروبولوجيا – ١٩٦٧.
- استراتيجية الاستعمار والتحرير – ١٩٦٨.
- بين أوروبا وآسيا – ١٩٧٢.
- نحو مدرسة عربية في الجغرافيا – ١٩٦٤.
- الجمهورية العربية الليبية – دراسة في الجغرافيا السياسية – ١٩٧٣.
- قناة السويس – نبض مصر – ١٩٧٥.
- من خريطة الزراعة المصرية – ١٩٨٣.

دراسات وأبحاث باللغة الإنجليزية

- **Population of the Nile Mid - Delta, past and present, Reading University, June ١٩٥٣**
- **Khartum : study of a city, Geog. Review, ١٩٥٦**
- **Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, ١٩٦٠**

- Evolution of irrigation agriculture in Egypt, in : A history of land use arid regions, ed. L. Dublet Stamp, Unesco, Paris, ١٩٦١
- Egypt, the land and the people, in: Guide book to geology, ١٩٦٢
- Pattern of medival urbanism in arab world, Geog. Review, April ١٩٦٢
- Political map of the new Africa, Geog. Review, October ١٩٦٣
- The four dimensions of Egypt

الجوائز والتكريم:

حظي جمال حمدان بالتكريم داخل مصر وخارجها:

- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٨٦م- مصر
- جائزة التقدم العلمي سنة ١٩٩٢م - الكويت
- جائزة الدول التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٥٩م- مصر
- وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتاب "شخصية مصر" عام ١٩٨٨م.

الترشيحات:

- عُرضت عليه كثير من المناصب الكبيرة في مصر وخارجها لكنه اعتذر عنها جميعاً مفضلاً التفرغ للبحث العلمي وكانت بعض الترشيحات هي:

- ترشيحه عام ١٩٨٣م لتمثيل مصر في إحدى اللجان الهامة بالأمم المتحدة
- عضوية مجمع اللغة العربية
- رئاسة جامعة الكويت.

تلك فقط بعض النماذج مما خط جمال حمدان من كتب، أما مقالاته ودراساته فلم تتوقف عن التدفق في العديد من المجالات المصرية والعربية، مثل مجلة (الكاتب) و(الطليعة)، وجريدة (الأهرام).

إذن.. نظلم كثيراً جمال حمدان، بأن نختصر تاريخه الفكري في (شخصية مصر)، دون سواهاً من الإسهامات الفذة، ونظلمه أكثر بأن نكتفي بعدم تقديم القشور من المعلومات عما كتبه، وعما آمن به من أفكار ورؤى وبخاصة ما سطره في موسوعته الرائعة (شخصية مصر).

لذا.. شرعنا في إعداد هذه الدراسة الموسعة عن أبرز أفكار ورؤى (حمدان), مستعينين في ذلك بكتبه المختلفة وبخاصة (شخصية مصر) بعد إعادة تبويب وترتيب القضايا المحورية، وبلغة أبسط مما صيغت به (حيث صاغ حمدان موسوعته خاصة الأجزاء الثلاثة الأولى بلغة المتخصصين). هذا ويمكننا محورة هذه الرؤى والقضايا في الآتي:

- عبقرية وطن: الملامح الخاصة بشخصية مصر.
- عروبة وإسلام: محاذير هوية مصر.
- عيوب مصر: حيثيات الدفاع عن الوطن.
- أمة في خطر: جوهر الأزمة الراهنة في مصر.

وبتفصيل ما سبق من واقع تراث جمال حمدان يستبين الآتي:

عبقرية وطن
والملامح الخاصة لشخصية مصر

(مصر) في كتابات جمال حمدان ليست قطعة أرض، أو جغرافيا مصمتة، على خارطة العالم، ولكنها كيان حي، له روح، وجسد، له ماض وحاضر ويرنو إلى مستقبل. وشخصية مصر لدى (حمدان) سيمفونية متناغمة من الخصائص والأحاسيس والبنى، ولقد تبدت لها ملامح خاصة في مجمل كتاباته (وبخاصة بكتاب شخصية مصر). وهي ذات شخصية متفردة وفي هذه الشخصية تكمن (عبقريتها الإقليمية) كما يسميها "حمدان". والنظرية العامة التي يقدم حمدان تفسيراً للشخصية المصرية من خلالها هي التفاعل - ائتلافاً أو اختلافاً - بين بعدين أساسيين في كيانها، وهما الموضع والموقع، فالموضع يقصد به البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها في ذاتها، أي البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة وجسم الوادي بشكله وتركيبه..الخ. أو كما يقول أحمد فخري بحق "مصر الفرعونية": "لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها". أما الموقع فهو صفة تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا، وتضبطه العلائق المكانية التي تربطه بها. الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة.

بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهما يفسر حمدان شخصية مصر، فهما يختلفان حين نجد مثلاً أن حجم (الموضع) كان لا يتكافأ دائماً مع خطورة (الموقع) الحاسم على ناصية العالم وهما يتألفان في

الأثر حين يدعوان إلى الوحدة السياسية والمركزية العنيفة، ومن حيث أن زمامها ليس محلياً تماماً وإنما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة. وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة، فما هي إذن ملامح هذه الشخصية في قائمة عرض أولية مقتضبة؟ .

هي بالطبع - وفقاً لحمدان - مثال النهر الكامل.. هي البيئة النهرية بامتياز، وبالتحديد نموذج البيئة الفيضية المطلق، بل هي بكل سهولة "أكثر الفياضانات فيضية" في الدنيا. فأكثر من أي بلد أخر، حياتها كلها هي النهر، لا وجود لها بدون، فسواء كانت هبة النيل، هبة النيل الأزرق، هبة الفيضان، هبة التحاريق أو الشراقي، هبة الفلاح أو هبة المصريين، فإن مصر تظل في التحليل الأخير هي النيل.

وهي، بعد، عالم الري الصناعي التام وتجسيم بيئة الري المطلقة والمجتمع الهيدرولوجي البحت ، بل إن مصر من الناحية العملية ترعة أكثر مما هي - أو بقدر ما هي - نهر، أو قل ترعة هي الترجمة التنفيذية للنهر. حسبك فقط أن شبكة ترعها والمصارف ليست أول وأقدم ما في العالم فحسب ،وإنما كذلك أكثفها إلى اليوم حيث لا مثيل لأطوالها بحسب المساحة أو السكان، إنها ببساطة ابنة الري جغرافياً، وإن كانت أمة تاريخياً.

ابنة النهر والصحراء

مثال النهر الكامل هي إذن، ولكنها بالدرجة نفسها مثال الصحراء التامة أيضاً.. منتهى التناقض، أو لا تناقض على الإطلاق، فبنسبة المساحة

تعد مصر إحصائياً أكبر وأكثر الدول الصحراوية في العالم بلا استثناء بما في ذلك دول الجزيرة العربية. فنحن دولة الصحراء الأولى في العالم، بمثل ما أننا دولة النهر الأولى، وسيادة صحارينا ليست بالكم فقط ولكن بالكيف أيضاً، فمصر بصحراواتها تأتي قمة الصحراء الكبرى مثلما هي قلبها ،ليس هذا فحسب، وإنما صحارينا عينة جامعة مانعة لكل أنواع وأنماط وتنويعات الصحراء الحارة ليثولوجيا ومورفولوجيا ومناخياً. مصر الصحراوية – باختصار – تصغير نموذجي للصحراء الكبرى.

من داخل متناقضة النهر – الصحراء يتري رتل من المتناقضات التي لا تقل إثارة، وإن كانت أقل درجة كما يقول حمدان.. فمصر في حكم الواحة الصحراوية، إنها في الصحراء وليست منها، إنها واحة ضد صحراوية بل ليست بواحة، وإنما شبه واحة هي. فلا هي تعتمد على المياه الباطنية أكثر مما تعتمد على المطر، ولا هي تنفصل عن إطار الصحراء أكثر مما تبتعد عن البحر.

إنها ماء بلا مطر، تجمع بين نقيضتي الجفاف والحياة، وبالتالي فإنها أرض الزراعة بالدرجة الأولى، مهدها على الأرجح، وأكثفها على اليقين. لكنها للسبب نفسه أرض المزروعات لا النباتات، والنباتات الطبيعية بصفة خاصة. ويسمي حمدان هذه الخاصية بالتكاثف الطبيعي، ويأتي التجانس بعد التكاثف كما يدرك حمدان ويصرح.. تلك يقيناً هي الكلمة المفتاح والنغمة الأساس داخل هذه البلورة المركزة المضغوطة. فرغم العديد من الفروق الموضعية والمحلية والإقليمية، ، يسود أجزاء الوادي قدر غير عادي من التشابه: طبيعياً ومادياً وبشرياً، ففي هذه البيئة الفيضية، النهر هو موزع

كل شيء وضابط إيقاع كل شيء: الغرين والماء، التربة والخصوبة، الطبوغرافيا ذاتها، الزراعة والإنتاج العمراني والسكان. إن النيل جغرافي مصر الأول، وربما الأوحد، إنه النهر الجغرافي بامتياز. وبحكم قوانين الإرساب النهري تميل هذه التوزيعات جميعاً إلى الحد الأقصى من التجانس والعدالة والتشابه، وإلى الحد الأدنى من التنافر والاختلال والتباين. وبالتالي فلا انقطاعات داخلية حاسمة ولا نطاقات متبلورة.

أقدم أمة في أول دولة في التاريخ

ومن التجانس إلى الوحدة، نقلة لا شك منطقية ونتيجة حتمية، كما يقول حمدان. وهكذا بالفعل كان، وهكذا كانت مصر دائماً. فمنذ فجر التاريخ وقبل أي بلد آخر بقرون على الأقل، بزغت مصر كشعب واحد تجمعه وطنية واحدة في وطن واحد، على شكل دولة أحادية: تلك أقدم أمة في أول دولة في التاريخ، الأمة – الدولة النموذج جيوبولوتيكياً قل أم الأمم، وإن كانت أبعد شيء عن أمة الأمم، بل إنها لم تكن الأولى إلا لأنها بالدقة لم تكن الثانية. وما من شك أن وراء هذه الوحدة السياسية العريقة الوثيقة والعروة الوثقى تكمن عوامل التبلور الجغرافي ووحدة البيئة الطبيعية والوظيفية والتجانس الأرضي والجنسي والبشري. وكذلك فمنذ ولدت هذه الوحدة فإنها قلما عرفت الانفراط أو الانحلال، كما لم تعرف التقسيم لا بالطول ولا بالعرض، ولا بالتصنيف ولا بالتربيع، لا في ظل الاستقلال ولا حتى تحت الاستعمار. إن مصر لم تكن قط مجرد "تعبير جغرافي" وحسب، بل كانت دائماً تعبيراً سياسياً منذ البداية وإلى النهاية.

الطغيان الغاشم فى التاريخ المصرى

من الوحدة إلى المركزية، جاءت خطوة منطقية أخرى إلى الأمام، ولكن من المركزية إلى الطغيان تمت خطوة أخيرة ومؤسفة إلى الوراء. كما تقول كتابات حمدان عن الأولى، فلا جدال أن الدولة المركزية والمركزية العارمة ملمح وظاهرة جوهرية في شخصية مصر، لا تنفصل ولا تقل خطراً عن ظاهرة الوحدة نفسها، ولا تختلف في عواملها وضوابطها الطبيعية. فبقوة المركزية الجغرافية والوحدة الوظيفية وطبيعة الري في البيئية الفيضية، وبرغم الامتداد الطولي الخطي الجسيم، فرضت المركزية السياسية والإدارية – ثم الحضارية – نفسها فرضاً في شكل حكومة طاغية الدور فائقة الخطر وبيروقراطية متضخمة متوسعة أبداً، وعاصمة كبرى صاعدة إلى أعلى صاروخياً وشامخة فوق البلد غالباً. يصدق هذا منذ الفرعونية حتى اليوم وبلا استثناء تقريباً. ومنذئذٍ وإلى الآن كقاعدة أيضاً، أصبحت المركزية، الحكومة، البيروقراطية، العاصمة أطرافاً أربعة أو مترادفة لمشكلة واحدة مزمنة ولمرض مستعص تقريباً.

على أن السمة الأكثر سلبية والمرض المدمر حقاً، إنما هو تردي المركزية إلى الاستبداد والطغيان. ووفقاً لجمال حمدان فإنه ومهما اختلفت التسميات بين الطغيان الفرعوني أو الإقطاعي، وسواء عد هذا قطاعاً عادياً من "الاستبداد الشرقي" بنمطه المعروف، أو عد قمته وأعتى صوره كما يرى الكثيرون، وآياً كانت النظريات المطروحة في تفسيره من "نمط الانتاج الآسيوي" إلى "المجتمع الهيدرولوجي" وبيئة النهر والري والزراعة

الفيضية، فإن الطغيان والاستبداد الغاشم الباطش هو من أسف حقيقة واقعية في تاريخ مصر من بدايته إلى اليوم، مهما تبدلت أو تعسرت الواجهات والشكليات.

ويرى حمدان أيضاً أنه، وسواء كانت مصر أم الدنيا أو أم الديكتاتورية، أو كان حاكم مصر هو أقدم أمراضها فلا شبهة في أن الديكتاتورية هي النقطة السوداء والشوهاء في شخصية مصر بلا استثناء، وهي منبع كل السلبيات والشوائب المتوغلة في الشخصية المصرية حتى اللحظة، وليس على مستوى المجتمع فحسب ولكن الفرد أيضاً، لا في الداخل فقط ولكن في الخارج كذلك.

ويبدع جمال حمدان أكثر في هذا الجانب عندما يؤكد أنه: ولقد تغيرت مصر الحديثة في جميع جوانب حياتها المادية واللامادية بدرجات متفاوتة، إلا نظام الحكم الاستبدادي المطلق بالتحديد والفرعونية السياسية وحدها، فهي ما تزال تعيش بين (أو فوق) ظهرانينا بكل ثقلها وعتوها وإن تنكرت في صيغة شكلية ملفقة هي "الديمقراطية الشرقية" أو بالأحرى "الديموكتاتورية". والمؤكد أن مصر المعاصرة لن تتغير جذرياً ولن تتطور إلى دولة عصرية وشعب حر إلا حين تدفن الفرعونية السياسية مع آخر بقايا الحضارة الفرعونية الميتة".

عبقرية الموقع

تلك سلسلة متداعية من السمات والخصائص الأساسية البارزة أو الكامنة في شخصية مصر على مستوى الموضع أو من الداخل وفقاً لحمدان.. غير أن هذه الشخصية لا تقل في خصائصها تبلوراً وتميزاً وتفرداً على مستوى الموقع أو من الخارج. وملامح الموقع تعد من أخطر مفاتيح تلك الشخصية. فهنا بالدقة يصل تعدد الأبعاد والجوانب في شخصية مصر إلى حده الأقصى، إذ تتفاعل جوانب الموقع إلى جوانب الموضع.. إما في تلاق وتلاقح أو في تعارض وتناطح، وبهذا التفاعل الخلاق تكتمل تلك الشخصية حتى تبلغ منتهى مداها ومدى آفاقها، وتخرج مصر من بينها وهي واسطة العقد ومتوسطة الدنيا وسيدة الحلول الوسطى.

هي أولاً دون مدارية بعروضها وإن لامست أطرافها المدار، ولكنها متوسطية بجسمها، فإنها موسمية بجذورها وأصولها المائية وهيدرولوجيتها الحبشية. كذلك فلئن كانت قد تحولت بالري الدائم حديثاً إلى "موسمية دائمة" على ما في التعبير من تناقض، فإنها تظل - مجازاً بالطبع - آخر الموسميات الشمالية, وهي بهذا وذاك جميعاً من أقل المداريات مدارية وأقل المتوسطيات متوسطية، وآخر "الموسميات" الشمالية، بمثل ما وجدناها بالموضع من قبل أكثر الفيضيات فيضية.

وهكذا جمعت مصر - كما يقول حمدان - في آن واحد بين قلب أفريقيا وقلب العالم القديم وأخذت من المداريات زيدها دون زيدها، فظفرت من النيل بجائزته الكبرى دون موقعه الداخلي السحيق المعوق، واستبدلت

به موقع البحر المتوسط المتقدم المتألق، واكتفت من العروض السفلى بحرارتها الحيوية المشرقة دون تطرفها الوائد، ثم استكملتها بمؤثرات عروض الخيل الملطفة المنعشة، فكانت صيفاً بلا سحاب وشتاء بلا صقيع مثلما هي أيضاً حياة بلا مطر.

أفريقية هي إذن بالموضع، متوسطية بالموقع، بيد أنها كانت كذلك أسيوية بالموقع. فكما أنها تقوم بالجغرافيا في أفريقيا، فإنها تمت أيضاً إلى أسيا بالتاريخ. فهي البلد الوحيد الذي تلتقي فيه القارتان ويقترب في الوقت نفسه من أوروبا، بمثل ما أنها الأرض الوحيدة التي يجتمع فيها البحران المتوسط والأحمر. الأول قلب البحار وبحر الأنهار والثاني بحر بلا أنهار، ولكنه بطوله وامتداده وموقعه كالنهر بين البحار. مصر إذن وهذا من نافلة القول، مجمع اليابس ومفرق البحار، أرض الزاوية في العالم القديم، قلب الأرض و"متوسط الدنيا" كما وصفها المقريزي.

أضف بالمثل أنها البلد الوحيد الذي يلتقي فيه النيل بالمتوسط، الأول بالطول والثاني بالعرض. الأول يعد رحلة سحيقة شاقة مفعمة بالأخطار والمخاطر والعقبات والسدود الجيولوجية والطبوغرافية والمناخية والنباتية الهيدرولوجية، كل منها كان يمكن وحده أن يشتته، يجهضه، يقطع عليه الطريق.. ولكنه يجتازها جميعها بإلحاح ثم بنجاح.. لمصر يجتازها. والثاني يصلنا في أقصى نهايته ونهاية مطافه. الأول أوسط أنهار الدنيا موقعاً وأطولها وأعظمها، والثاني أوسط بحار الدنيا، سيد البحار وأعرقها. إنه لقاء الأكفاء والأنداد والأفذاذ جغرافياً: أبو الأنهار وأبو البحار، مهد التاريخ (أو نهر التاريخ وبحر الحضارة – سيان).

وبهذا اللقاء وفقاً للدكتور جمال حمدان، مع التحام القارتين وتقارب البحرين، فكأنما كل أصابع الطبيعة تشير إلى مصر، وكأن خطة علوية عظمى قد رتبها (الجغرافي الأعظم) سبحانه وتعالى لتجعل منها قطباً جغرافياً أعظم في العالم القديم، وبالفعل تحقق الوعد الجغرافي تاريخياً، فكانت حضارة مصر النيل : الفرعونية، الحضارة الأولى في التاريخ، الرائدة والمشعل، وسواء أكانت صدفة سعيدة أو نتيجة حتمية، فتلك ملحمة جغرافية ترجمت إلى ملحمة حضارية، سواء أكانت هذه الحضارة البكر الخلاقة من خلف النيل المعلم أو الفلاح المصري الملهم، فإنها ثمرة الزواج الموفق السعيد بين أبي الأنهار وأم الدنيا. سواء أكانت الزراعة اكتشافاً مصرياً محلياً مستقلاً – كما كان الرأي السائد أصلاً – أو مستورداً من الخارج – الهلال الخصيب أو الشرق القديم – كما هو الاتجاه الحديث، فإن مصر الحضارة هي ثمرة زواج النيل بالمتوسط أو الموضع بالموقع.

وفي جميع الأحوال، فإن مصر هي "واسطة كتاب الجغرافيا" تحولت إلى "فاتحة كتاب التاريخ". وفي جميع الأحوال أيضاً، فإن السبق الحضاري ملمح أساسي بلا نقاش في شخصية مصر. وأخيراً وليس آخر فلقد أبدت هذه الحضارة استمرارية نادرة، فعمرت بصلابة وتماسك آلاف السنين ولم يقطعها أو ينسخها إلا الحضارة الحديثة وحدها في القرنين الآخرين.

هوية مصر وجمال حمدان

شغلت (هوية مصر) العالم الشهيد الدكتور/ جمال حمدان، ومثلت هاجساً ثابتاً لديه، حاول أن ي-بلوره، ويحدده، فبحث وتأمل وتعمق في التاريخ، وفي المستقبل، وخرج بحقيقة أساسية أن هذه الهوية لا تخرج عن (العروبة الإسلامية). صحيح لمصر شخصيتها المتفردة، إلا أن هذا لا يعني انفصامها عن المحيط العربي والإسلامي، رغم أن الجانب العروبي عند حمدان كان أعلى وأوضح من الجانب الإسلامي. وهكذا أدرك حمدان حقيقة الهوية المصرية، ولكنه لكي يصل إلى هذا الإدراك أشار إلى للعديد من المحاذير والتفاصيل التى نحتاج اليوم فى أجواء ثورة يناير ٢٠١١ ، وبعد مرور أكثر من عامين على انطلاقها ، تلك الثورة التى بشر بها (حمدان) ، إلى أن نتأملها وأن نتفهمها :

محاذير الشخصية الإقليمية

إن البعض – من وجهة نظر د. جمال حمدان – قد يرى أن الحديث عن الشخصية الإقليمية وما يضغط عليه أو يوحي به من تفرد في روح المكان وعبقرية ذاتية في الإقليم، إنما هو أمر يؤكد الفروق الجغرافية على حساب المشابهات بالضرورة، ويبرز الاختلافات المحلية في وجه التجانس العام، وبالتالي قد تكون له محمولات وظلال معينة أو قد تقحم عليه تخريجات أو تأويلات سياسية بعيدة أو قريبة. إن هذا خطأ تاريخى يرتكبه البعض من نخبتنا السياسية والثقافية من وجهة نظر حمدان .

* ففي منطقة كالوطن العربي الكبير، تسعى اليوم حثيثاً إلى الوحدة الشاملة في نضال تاريخي بطولي، ألا يعني هذا - هكذا تتساءل النخبة المغتربة عن عروبتها من وجهة نظر حمدان - التأكيد على "الوطنية" المحلية الضيقة في وجه "القومية" العربية المشرقة؟! ألا يعني الحديث عن الشخصية المصرية انغلاقاً وتشبثاً إقليمياً "بالمصرية" إزاء "العروبة"؟ فإذا ما تكلمنا بعد ذلك عن الشخصية العراقية والشخصية السورية والجزائرية، إلى آخر الوحدات التي يتألف منها الوطن الكبير ، أفلا يعد هذا بصورة ما سعياً واعياً أو غير واع إلى التفرقة والتمزيق في وقت نحن أحوج ما نكون إلى التماسك والتلاحم؟

الوحدة السورية - المصرية نموذجاً للاختلاف

* يقدم حمدان فى دراساته نماذج للاختلاف بين النخبة حول (الوحدة) والفرقة، ويقول : على الفور تتبدى لنا حقيقة الفلسفة الفكرية التي تكمن وراء القضية المثارة. إنها إذن قضية المتشابهات والفروق الجغرافية بين قطر وآخر من الأقطار العربية، قضية التفرد والتجانس، قضية الوحدة والتنوع. والمطلوب إذن ممن يتصدون لمثل هذه الدراسة أن ينقبوا عن أوجه الشبه لتأكيدها والضغط عليها. ونكاد نضيف أن المفهوم لذلك منطقياً وضمنياً أنهم مدعوون كذلك إلى إهمال أوجه الاختلاف الطبيعي إن أمكن، فكلما كنت وحدوياً (طيباً) كان من الطبيعي أن تنقب عن التجانس الطبيعي داخل الوطن الكبير وتبرزه تجسيماً وتضخيماً، وإن أمكنك أن تغفل الفروق وتعتم التفرد المكاني فذلك خير وأجدى وحدوية.

ولقد وصل الأمر بهذا الاتجاه، حتى من الناحية الشكلية أو الرمزية البحتة، إلى حد يثير التساؤل أحياناً، ففي أيام الوحدة السورية المصرية في الخمسينات "الجمهورية العربية المتحدة" كان هناك إصرار مبدئي شديد بين بعض المثقفين الوحدويين على محو كل مظاهر الاختلاف الطبيعي الصرف بين إقليمي الوحدة، بما في ذلك حتى الحقائق الجيولوجية. ذاتها والأسماء الجغرافية الطبيعية من بعدها. فعن الأولى شهدت تلك المرحلة محاولات فجة لإثبات وتأكيد الوحدة بين الإقليمين من خلال إبراز التشابه وتأكيد الوحدة بين الإقليمين من خلال إبراز التشابه مثلاً بين الصخور والتكاوين والطبقات الجيولوجية فيها (كذا!).

أما عن الثانية كما يقول حمدان، فقد ثار جدل فكري حول أي تسميات نستعمل: الأسماء الطبيعية التي وجدت منذ فجر التاريخ: سوريا ومصر، أم الاسم الوحدوي المستحدث: الجمهورية العربية المتحدة؟ وواضح أن صميم المشكلة كان الظلال الوحدوية أو الانفصالية التي ظن أن هذه التسمية أو تلك توحي بها. ولكن الواقع أن التعارض لم يكن حقيقياً وكانت المشكلة شكلية إلى حد بعيد. فمصر (منذ مصراييم) كسوريا (منذ الآشوريين) اسم "جغرافي" بمثل ما أن اسم كوكبنا هذا هو الأرض، واسم نهرنا هذا هو النيل، باق ولا مفر منه ما بقيت هذه الأرض وهذا النيل. أما الجمهورية العربية المتحدة فاسم "سياسي" عبر عن حقيقة قامت وعن أمر شاهق مرموق. وهو بهذا لم يكن يقصد به أن يقتصر على مصر وسوريا حكراً إلى الأبد، وإنما كان المفروض - بالتعريف - أن يتسع يوماً لدولة الوحدة العربية الكبرى.

هل فروق الجغرافيا تخالف العروبة ؟

حسناً يسأل د. جمال حمدان: ولكن هل حقاً يعني وجود الفروق الجغرافية بين وحدات الوطن العربي التفرقة السياسية؟ وهل حتماً أن تؤدي الاختلافات الطبيعية إلى الخلافات القومية؟ هل الحديث عن الشخصية الإقليمية لمصر أو المغرب أو العراق.. الخ يترادف مع الحديث عن "المصرية والمغربية أو العراقية".. الخ ويتضاد مع العروبة؟ أهي ردة بصورة ما - مباشرة أو غير مباشرة - إلى الفرعونية والبربرية والآشورية؟ باختصار هل يتعارض القول بوجود عبقرية مكان خاصة بكل أو بأي قطر عربي مع دعوة القومية والوحدة العربية؟

أم أن هناك فروقاً طبيعية وجغرافية بين أجزاء الوطن العربي، فتلك حقيقية أولية كالبديهيات لا يمكن لأحد أن ينكرها موضوعياً، أكثر مما يمكنه أن ينكر أن هناك بعض مشابهات وأوجه تقارب بين بعضها البعض. فهناك مثلاً تشابه مؤكد بين مصر والعراق كبيئتين فيضتين، والشام والمغرب الكبير نظائر جغرافية إلى حد بعيد بطبيعتهما الجبلية المتوسطية، وبالمثل تكرر الوحدات الصحراوية من العالم العربي كثيراً من الملامح المشتركة، ولكن من الواضح تماماً أن البيئة المصرية تختلف عن البيئة في المغرب بمثل ما تختلف البيئة العراقية عن السورية وهكذا.

ولسنا نقصد بهذا - والقول للدكتور جمال - أن نؤكد الفروق الطبيعية بين أقطارنا العربية لنطمس معالم التشابه بينها، ولكننا نقول أن ثمة فروقاً وليس يجدي في مواجهتها علمياً أو قومياً أن نتجاهلها في سبيل وحدة

جغرافية منمطة، أو تجانس طبيعي باهت موهوم. إنما الشخصية الإقليمية أشبه شيء بالشخصية الإنسانية. فالشخصية - هذه وتلك - مركب معقد للغاية من عدد ضخم من العناصر وتوليفة معينة من السمات والصفات والملامح والمعالم. فإذا اشتركت شخصيتان في الغالبية من تلك العناصر والقسمات، ولكن اختلفتا في قلة منهما مهما تضاءلت، فليس علينا جناح أن نتكلم عن "تفرد" الشخصية في كل منهما، رغم التشابه الواسع المدى، ودون أن يعني ذلك أي تنافر أو تضاد بينهما.

ولهذا فإن الخلط أن نظن أن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان لهذا القطر العربي أو ذاك يعني تدعيم الدعوة الانفصالية، أو أننا إذا قلنا شخصية مصر، فقد قلنا الفرعونية، أو إذا قلنا شخصية الشام، فقد قلنا الفينيقية.. الخ، وأن القول بتفرد أي أو كل قطر عربي هو تبرير للتجزئة السياسية أو سند للانفصال يتعارض مع القومية والوحدة العربية.

التنوع في الوحدة

وحقيقة الأمر أن الوحدة السياسية لا تأتي بالضرورة من الوحدة الطبيعية،وإنما من الوحدة البشرية تأتي، فالعبرة من قيام دولة موحدة دستورياً هي وحدة الناس، أي وحدة القومية بمعنى تجانسهم في المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سادة، وهذه جميعاً أركان متوافرة في القومية العربية، ربما كانت لا تتوافر في قومية أخرى معروفة. لا عبرة بعد هذا بتجانس أو تباين الأرض التي

يحتلونها ثم أن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية في أي مجال لا تأتي من الوحدة التركيبية، بل من التنوع التركيبي. فأي جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة في إنتاجها ومواردها وإمكانياتها، إلا أن يكون مجرد تمدد أميبي عقيم؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ (التنوع في الوحدة) أو (الوحدة في التنوع).

ليس ما يضير قضية الوحدة العربية إذن - وفقاً للدكتور/ جمال حمدان - أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك. وهذا التنوع والتباين في البيئات إنما يثري الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد. وهو في نفس الوقت أمر لا علاقة له بالتعدد الدستوري، ولا يعني التمزيق السياسي أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال، ولا يشجع الولاءات الوطنية أو روح الإقليمية في وجه الولاء القومي العربي الكبير أو على حسابه، لا، ولا هو يمهد لنعرة محلية وانعزالية فكرية وسياسية بقدر ما يضيف إلى العزة القومية الواسعة وينميها". وهذه المعانى الجليلة التى قالها حمدان لم يفهمها حكام ما بعد الثورات العربية الجديدة للأسف خاصة الإسلاميين منهم ، فلقد ركزوا على عوامل الفرقة وجعلوها أساساً ومنطلقاً وتعاملوا مع التكفيريين المحبين والممولين من إسرائيل والخليج المحتل وسموهم ثواراً (انظر حالة سوريا والعملاء المنتشرين بها باسم الثورة) ، إن هذا الوضع فى مجمله رفضه جمال حمدان ودعى إلى الثورة المستمرة وهو ما نرجو له التحقق .

محاذير الفرعونية العربية

ثم ينتهى جمال حمدان فى تفنيده لمسألة الوحدة مع وجود الاختلافات البيئية بين الأقطار العربية إلى القول أنه لا بد أن ندرك (أو نعترف) أن إهمال هذه الحقيقة أو الاهتمام بها قد أصبح له مغزاه السياسي الخطير. فهناك من يحاول أن يبالغ في جانب الاستمرارية في كياننا لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع، وبالتالي ليضخم البعد الفرعوني في تاريخنا فيبعدنا بذلك عن عروبتنا ويطمس معالمها، هم يفعلون ذلك حين يتساءلون في كلام له خبئ "فرعونية أم عربية؟". ونود أن نضيف – بين قوسين – أنهم قد يخفون السؤال نفسه وراء قضية أخرى جديدة هي المقابلة بين الوحدة العربية والوحدة الأفريقية. فهم يرتبون على المقدمات السابقة أن مصر "ليست عربية ولكنها مستعربة" "ليست عربية ولكنها متكلمة بالعربية" "ليستا عرباً ولكن أشباه أعراب" وهذا عبث لا يليق من وجهة نظر حمدان .

لقد اندثرت كلمة (المستعرب) في المغرب الأوروبي ومعه، ولكن هناك الآن من يبدو أنه يعمل لبعثها في المشرق العربي. والهدف من كل هذه الدعاوى هو دائماً تخريجات سياسية واضحة ترمي إلى التشكك في عروبة مصر، وبالتالي إلى عزلها عن العالم العربي والإسلامي وهو ما يناقض هويتنا الحقيقية. هكذا يؤكد حمدان فى غالب دراساته الرائدة الداعية إلى الوحدة العربية وإلى هوية مصر العربية ، الرائدة والقائدة ، وليست مصر الحالية – للأسف – التى تقودها دويلة مثل تلك الدويلة التى تحتلها قاعدة

العديد ، دويلة لا ترى على الخريطة ، ولا ينطبق عليها وفقاً لتعريفات حمدان عن مفهوم (الدول) كلمة دولة ، فهى مجرد شركة وراثية لها دور لخدمة الغرب مثلها مثل مشيخيات الخليج الأخرى أو مثل الكيان الصهيونى مجرد شركات أو جماعات وظيفية ليس إلا !! .

في منظومة كتبه ودراساته المهمة، يضغط الشهيد الدكتور جمال حمدان، على (عيوب مصر)، مبرزاً إياها ليس بهدف التنقيص من قدرها، بل نشداناً للكمال في بناء شخصيتها وإعادة دورها التاريخي الذى هندسته الجغرافيا وفلسفته الحضارة، وحمدان لا يقف عند حدود إبراز العيوب، ولكنه يتصدى لمن ينتقد (مصر) دون سند من حق وواقع، وموضوعية. ومن هنا نجده يرد مدافعاً بشراسة وعلمية في آن واحد، عن المدارس الغربية التي تتصيد أخطاء استراتيجية لمصر، دون وجه حق. ولقد حدد (جمال حمدان) خمسة انتقادات أساسية وجهت إلى شخصية مصر، ورد عليها مفنداً إياها، ونظراً لأهمية (الرد) و"الانتقاد" أيضاً نوجزه فيما يلي:

(١) العيب الأول: مصر أطول مستعمرة تاريخية:

يرى جمال حمدان أنه – وأولاً – ما من بلد لم يتعرض أو يخضع للغزو والاحتلال طويلاً أو قليلاً في تاريخه، وإنما المهم اعتبار الظروف الموضوعية ومدى المقاومة، وفي مصر عاشت الدولة المستقلة أو الإمبراطورية المطلقة نحوا من ٢٤٠٠ سنة (ابتداء من ٣٤٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م تقريباً)، ثم تلت ٧٠٠ سنة منصفة تقريباً بين الاستقلال والاحتلال (١٠٠٠ – ٣٣٢ ق.م) لتعقبها نحو ألف سنة أخرى من الاستعمار الكامل ٣٣٢ق.م – ١٤٠م)، فتلك ٢٧٠٠ سنة من الاستقلال مقابل ١٣٠٠ من

التبعية، بل إننا إذا أضفنا – كما يفعل فير جريف – تاريخ ما قبل التوحيد لامتد عصر الاستقلال إلى ٤٠٠٠ سنة كاملة لم تخضع فيها مصر لغاز أجنبي، أما العصر الإسلامي فله – يقيناً – حكمه الخاص، وعلى أية حال فقد كانت دولة مصر مستقلة تماماً في ذاتها، بل وذات إمبراطورية وقوة حربية، على الأقل طوال الفترة من الفاطمية حتى المملوكية، أي نحو ٦ قرون (٩٦٩ – ١٥١٧م) قل نحو نصف العصر الإسلامى .

فذلك جميعاً وعبر كل التاريخ ٣٣٠٠ سنة من الاستقلال مقابل ٢٠٠٠ من التبعية، ولا يختلف حساب حسين فوزي كثيراً فهو يتوصل إلى أن مصر خلال ٥٠٠٠ سنة تمتعت باستقلال كامل على مدى ٣٥٠٠ سنة منها نحو ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسرات مصرية صرف، ونحو ١٠٠٠ سنة حكمتها أسرات أجنبية، وعلى هذا فإن عصر الاستقلال يمثل ٧٠% من تاريخها وليس هذا أو ذاك بالشيء القليل، إذا نحن نظرنا إلي طبيعة الموقع وإذا قارنا ببلد متطوح وجزيرة منفصلة كبريطانيا نصف تاريخها المعروف على الأقل – وعلى قصره – خضع للغزو والحكم الأجنبي، أو كما يقول فيرجريف معبراً عن دهشته من ضخامة هذه الإنجازات المصرية، فكر في تواريخ كل الدول في العالم، ما من واحدة استمرت لنصف الوقت وهي متحررة من الغزو.

ثانياً: تسقط كذلك نظرية أطول مستعمرة، أو على الأقل تتعدل جوهرياً ... لماذا؟ لأن طول عصر التبعية في تاريخ مصر لا يجب أن يعزل عن طول تاريخ مصر العام نفسه، وإلا كان الأمر أشبه بخداع أرسطو، فإنما يبدو الأول أطول منه في كثير من البلاد الأخرى لأن الثاني هو ببساطة

أطول تاريخ معروف على الأرض تقريباً، وإذا كان البعض قد عد نحو ٤٠ أمة سيطرت عليها، فإن هناك - إن صح الرقم - من يعد هذا قليلاً بالنسبة لطول تاريخها السحيق وبالقياس إلى سائر البلاد، وعلى أية حال، فإن كثيراً من تلك الأمم نفسها قد خضعت طويلاً ومراراً لمصر، كما أن ثورات التحرير الوطنية والشعبية لم تنقطع كما رأينا طوال تلك الفترات ابتداء من الأثيوبيين والفرس حتى المماليك والترك، بل إن مصر هي التي انفردت بالزعامة الإقليمية في المنطقة لأطول مدى معروف أو ممكن، معظم العصور القديمة ونصف العصور الوسطى تقريباً، حيث كانت زعامتها للعرب أطول بالتالي من أي من زعامة أي غيرها.

العيب الثاني: النضج المبكر .. والشيخوخة المبكرة:

يرى جمال حمدان أنه بالمثل تتعدل نظرية النضج المبكر والشيخوخة المبكرة، تقول النظرية: إن خلاصة دورة التاريخ في مصر أنها نمت نمواً مبكراً للغاية وسابقاً لأوانه، ولكنها بالمثل انتهت قبل الأوان، وبهذا اختزل العصر البطولي في تاريخها إلي قطاع صغير نسبياً من دورة حياتها، وقد ترتب على هذا أنه ما من قوة أو دولة كبيرة كانت أو صغيرة خضعت لمصر إلا وخضعت لها مصر يوماً ما، بينما أن مصر من الناحية الأخرى قد خضعت لكثير من قوى ودول لم يحدث قط أن خضعت لمصر ولم تصل هذه إليها يوماً ما على الإطلاق، بحيث يخرج صافي محصلة الأرباح والخسائر السياسية والاستراتيجية على امتداد التاريخ كله في غير صالح مصر.

من الحالة الأولى - وكلها ملاصق لمصر - سوريا وليبيا والنوبة وأثيوبيا والجزيرة العربية، فكلها مثلما وقعت تحت سيطرة مصر دخلت

مصر دائرة نفوذها في وقت أو آخر، ومن الحالة الثانية – التي تؤلف حلقة محيطة بالدائرة السابقة – الأناضول والعراق وفارس شرقاً ثم اليونان وروما والمغرب غرباً، هذا عدا فرنسا وبريطانيا مع الاستعمار الحديث.

والرد على هذا يحدده الدكتور جمال حمدان في الآتي: أولاً: إن العصر البطولي في حياة أية دولة هو بالضرورة مرحلي مهما طال، وما من دولة عاشت على قمة المنحنى الاستراتيجي إلى الأبد، وإنما العبرة هي بطول هذه الفترة، فإذا قيل إن دورة التاريخ المصري في هذا الصدد ربما تذكرنا بفرنسا فيما بعد في تاريخ أوروبا الحديثة، حين كانت أول أمة ثم إمبراطورية عرفتها أوروبا الحديثة ثم ما لبثت أن فقدت مكانتها مبكراً لقوى صاعدة جديدة، إذا قيل هذا فالرد هو مرة أخرى: فارق المقياس الزمني الضخم بالألف هنا وبالقرن هناك، والعصر البطولي في تاريخ مصر هو أطول فصل في بابه على الإطلاق وربما أيضاً على النسبة، وذلك فضلاً عن أن مصر لم تكد تختفي من خريطة القوة في أي وقت، ولم تعرف العجز السياسي ولا شاخت بقدر ما حققت تجديد شبابها دورة بعد دورة.

ثانياً: لا سبيل قط إلى المقارنة أو المقابلة أو المعادلة بين السيطرة المتبادلة بين مصر وبعض القوى المجاورة، فالسيطرة المصرية تكررت في تلك الحالات عشرات المرات واستمرت عشرات القرون أحياناً، بينما لم تقع السيطرة المضادة إلا نادراً وعابراً جداً، أحياناً كفلتات لم تعمر إلا بضع سنين، لقد كانت الأولى أقرب إلى القاعدة، والثانية إلى الاستثناء، إن لم نقل الشذوذ، أما أن مصر خضعت لقوى بعيدة لم يحدث أن خضعت من قبل أو من بعد لمصر، فتلك حقيقة قد تكون مؤسفة بما فيه الكفاية، وقد يعدها

البعض قصوراً أو تقصيراً، ولكن لها في الغالب ظروفها الخاصة .. إما من بعد جغرافي عبر البحار أو أن مصر لم تجد لها مصلحة في تعقبها أو ملاحقتها.

ومهما يكن، فليس التاريخ عملية ثأر وتصفية حساب تراكمي، كذلك فما من دولة معروفة في أوروبا مثلاً إلا وخضعت لقوة أو لقوى لم يحدث لها بالضرورة أن أخضعتها بالمقابل، وعلى أية حال، فإن انتصارات مصر عبر التاريخ تعوض يقيناً عن هزائمها وزيادة، والإمبراطوريات الشاسعة التي أقامتها مراراً وطويلاً ترجح بالتأكيد خضوعها كمستعمرة للأجنبي، بحيث يخرج كشف الحساب النهائي والختامي - إن كان ولابد من كشف حساب - مشرفاً بصفة عامة أو محايداً متوازناً على أقل تقدير، وليس لمصر أن تخجل من تاريخها وليس في ماضيها ما يشين.

العيب الثالث: نظرية المقاومة السلبية:

تسقط كذلك هذه النظرية - كما يقول د. جمال حمدان - بكل محمولاتها وأصدائها وظلالها .. تلك النظرة أو النظرية الانهزامية التي رددها بعض السطحيين في يأس وتخاذل: "وهي أن مصر لمن غلب"، وكذلك يسقط معها ما يندرج تحتها أو يجري مجراها خاصاً بعصر بعينه أو حالة معينة، مثل نظرية أن "سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك فلا يحكمهم سواهم" .... الخ.

يقول أصحاب الاتهام إن مصر كانت تتخذ موقفاً سلبياً بدرجة أو بأخرى من الغزاة الطامعين فيها، فلا يكاد يبدي المصريون مقاومة تذكر،

إن لم يقفوا متفرجين علي صراع الغزاة فيما بينهم علي أرضهم في انتظار نتيجة التصفية، فإنهم كانوا أحياناً يرحبون بغاز جديد أو يتركونه ليطرد غازياً قديماً، بحيث لم يكن لهم هم أنفسهم دور أو فضل كبير بصفة خاصة في التحرير، حدث هذا مع الإغريق ضد الفرس، ومن قبل بين الليبيين والنوبيين وبين النوبيين والآشوريين، ومن بعد مع العرب ضد الرومان، كما تكرر بين أسرات العصر العربي وحتى بين المماليك، بينما دخلت الفاطمية بغير دعوة وبغير مقاومة تقريباً.

وآخرون يقولون، في إشارة محددة إلى الفترات الإسلامية التي استقلت فيها مصر ولكن تحت حكام أجانب، بأن مصر كانت مستقلة ولكن لم يكن كذلك المصريون.

وآخرون يقولون إنها تحولت خلال فترة من تاريخها إلى قوة منزوعة السلاح وإلى شعب أعزل حين انتزع الحكام الأجانب - كالمماليك المرتزقة والأتراك - وظيفة الحرب لأنفسهم، فانصرفت هي إلى صناعة الحضارة وانصرفوا إلى صناعة الحرب، وثمة آخرون كذلك يشخصون هذا الوضع بأن مصر كانت "وعاء للقوة" ولكنها لم تكن "أداة القوة"، حيث كانت قوة ضاربة ولكن في يد غيرها، يد غير يدها تملك الزمام والزناد، وبمعنى آخر كانت مصر "مطرقة قوة" ضخمة ولكن ليس "اليد الضاربة".

هل كان المصريون دائماً محكومين بالغزاة !!

* وفي مجمل التاريخ، وكنتيجة عامة، يلخص البعض الموقف في أن المصريين كانوا في الغالب محكومين بالغزاة الأجانب، وأن هؤلاء الأجانب

كانوا في الغالب من الرعاة الرحل، وأن تقسيم العمل هذا، أو هذا الانتخاب الطبيعي بين المحكومين الزراعيين من أهل النهر وبين حكامهم الأجانب الفاتحين السادة من بدو الصحراء المحيطة، قد طبع المصريون بطابع قوي أو قويم، ففي مصر، كما ينظر أولمستد مثلاً "لدينا مناخ حار جاف حيث الاعتماد الأساسي للمحاصيل ليس على الأمطار، ولكن على ارتفاع النيل، هذا الارتفاع المنتظم كالفصول، والتغير الصغير نسبياً في الحرارة بين الفصول نفسها، وغياب المطر الكامل تقريباً مأخوذاً في الاعتبار مع خصوبة التربة، ثم قلة عدد المحاصيل الرئيسية، خلق حالة .. كل ما هو مطلوب فيها هو القيام المستمر بتنفيذ روتين لا يتغير قط، ويتطلب العضل أكثر مما يتطلب العقل، وهذا ما نجده منعكساً بصورة فائقة في شخصية الفلاحين الذين لا هم لهم الآن – كما في القديم – إلا الحصول على ما يكفي من الطعام ليعيشوا به ويتزوجوا عليه، لكن هذا لم يغير جدياً من شخصية الطبقة الحاكمة لأنهم – منذ عصور ما قبل الأسرات – كانوا دائماً من الأجانب ... وفقط لأنهم لم يلائموا أنفسهم مع المناخ، فقد اعتورهم الضعف وانقرضوا في النهاية .. أما الفلاحون الذين لا يتغيرون البتة والذين يبدون بصورة بارزة جداً آثار المناخ، فإن المؤرخ لا يحتاج إلى ذكرهم إلا مرة واحدة،بعدها يمكن افتراض وجودهم ضمناً بصدد العلاقة التاريخية اللاحقة.

نظرة منحرفة ظالمة للمصريين

فهل صحيح هذا كله؟ يجيب د. جمال حمدان: إن هذه النظرة أو تلك، إن لم تكن منحرفة أو متحيزة فإنها لا يمكن أن تكون إلا جزئية أو مبتسرة

على الأقل، أولاً: لأنها تتناسى حالات المقاومة العنيدة العنيفة والدموية بالعشرات المتمثلة في الثورات والانتفاضات والصدامات مع الجميع، ولم يحدث أن دخل مصر غاز أجنبي أو قام بها كنزهة عسكرية هينة بلا ثمن باهظ من الدماء والخسائر الفادحة، بل والانكسارات المحققة أحياناً ، لنتأمل المقاومة الوطنية المستبسلة والمصرة، هي - مثلاً - التي طردت أول غزاة لمصر على البر وهم الهكسوس، وأول غزاة لها على الماء وهم شعوب البحر.

وفي الحملات الصليبية الثلاث، وعلى أيام ابن بطوطة، كان أهل الإسكندرية يملكون مستودعات سلاح ضخمة، بل ويرفضون مراراً أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم، وفيما يعد في مواجهة الحملة الفرنسية لم يكن ثمة سوى المصريين يتصدون لها ويجلونها في النهاية، ونحن نعلم من الجبرتي كيف كان القاهريون يصنعون السلاح وكيف كان بعضهم من الفقراء يبيع أمتعته أو "ملبوسه" ليشتري السلاح لحرب "الفرنساوية".

وأخيراً، تتناسى تلك النظرية المزعومة أين ذهب غزاة مصر: لقد بادوا وذهبوا وبقيت مصر، فبقوة حيويتها، وبقدرة نادرة على الامتصاص ابتلعتهم في جسمها الكبير حتى انتهى الأمر بالمنتصر عسكرياً إلى الهزيمة البشرية، وبالمهزوم عسكرياً إلى الانتصار بشرياً، بينما خرجت هي مقبرة الغزاة المثالية، أكبر مقبرة للغزاة، ولقد يرد أعداء مصر قائلين نعم، هي نجحت في البناء عبر ألاف السنين رغم كل الغزاة، ولكن بأي ثمن: بسيادتها كثمن، لقد فقدت استقلالها في مقابل بقائها.ولكن هذا بدوره

مردود عليه: فالحيوية إنما هي أساساً القدرة على الامتصاص وعلى امتداد الصراع، والقدرة على امتصاص الصدمات، كما يؤكد جوبليه، هي المقياس الحقيقي الوحيد لحيوية الشعوب والدول.

ومن الواضح تماماً في تاريخ مصر أن المصريين قوة صامدة صابرة وكتلة صماء صلبة غير منفذة للأجنبي بسهولة، وعلى هذه الصخرة بالذات – حتى بسلبياتها أحياناً أكثر منها بإيجابياتها – تحطمت الغزوات أو تآكلت وأرهق الاحتلال والاستعمار حتى رحل.

العيب الرابع: نظرية الشعب غير المحارب:

هل المصريون شعب محارب؟ يجيب الدكتور جمال حمدان في كتابه "شخصية مصر" بأنه كثيراً ما أثار البعض خاصة الاستعمار الحديث، هذا السؤال ليثبت قضية معينة أو ينفيها، ويبدو أن هذه النظرية وضعت كامتداد وتكبير على مستوى الخارج لنظرية سلبية ووداعة المصري المفترضة في وجه الطغيان والاستبداد المحلي في الداخل.

وهنا وجه الغرابة والخطأ معاً، فلئن صحت النظرية الأخيرة جدلاً، فليس أبعد عن الصحة من النظرية الأولى، بل إن المصري ليوشك أن يتصف بمتناقضة غير عادية إن لم تكن محيرة، بين سهولة الانقياد والخضوع للحاكم في مجال السياسة والداخل، وبين الشجاعة الوطنية الفائقة والصلابة العسكرية النادرة في مجال الحرب في الخارج، ولقد يرى على العكس أنه لا تناقض حقيقي بين الصفتين بقدر ما هما متكاملتان، بمعنى أن العوامل والظروف التي جعلته سهل الخضوع للحاكم، يفضل

السلامة في الداخل، هي نفسها التي جعلته مقداماً فدائياً بالغ الجرأة والشجاعة في القتال في الخارج.

ومهما يكن الأمر، فإن سؤال الشعب المحارب هذا – من وجهة نظر الشهيد د. جمال حمدان– اتخذ حساسية خاصة في السنوات الأخيرة منذ بدأ الصراع العربي – الإسرائيلي، فقد أعاد العدو الإسرائيلي والدعاية الصهيونية، طرح القضية بعد يونيو ١٩٦٧ خاصة وقبل أكتوبر، ليلقى ظلالاً باهتة على الشخصية المصرية كجزء من حربه النفسية الضارية على مصر، وذلك بخبث شديد، ولكن بخطأ أشد وفشل أشد وأشد، فالواقع أن النظرية برمتها، إن لم تكن قطعة من أوهام العوام أو الخواص، فإنها لا تعدو فرية ملفقة من صنع الاستعمار .. أما علمياً فلا أساس لها من الصحة، بل الصحيح هو عكسها تماماً، سواء على المستوى العملي أو النظري.

فأولاً: من ناحية الواقع التاريخي، ربما كان للمصريين أطول سجل معروف في الحرب والقتال، إذ لم تكف مصر القديمة عن المعارك والحروب لآلاف السنين، بل لقد أخذ على الإمبراطورية من قبل في الفرعونية إفراط العسكرية والإسراف في الحروب، وهذا لا يدل إلا على شعب محارب بالطبع ومنذ البداية، وللنبي محمد بعد هذا كلمة بالغة الدلالة والحسم هنا، إذ أوصى العرب إن أتيح لهم فتح مصر أن يتخذوا فيها "جنداً كثيفاً لأنهم خير جند الأرض"، وعلل ذلك بأنهم "في رباط إلى يوم القيامة".

ومن بعد كان نابليون يعتبر أن المصري خامة مُثلى للجيش المقاتل حين قال: إنه لو كانت كل جيوشه كالمصريين لملك العالم، ومن بعده

استبدل محمد علي المصريين بالجند الأتراك والألبانيين، وكانوا هم كل جيوشه، وبهم حقق إبراهيم كل انتصاراته، وكان إبراهيم بالذات يفاخر العالم بالمقاتل المصري ويعده علناً خيراً من المقاتل التركي، أما اليوم فإن سيناء أكتوبر أو أكتوبر سيناء هي آخر دليل قاطع على الشعب المحارب، وآخر تكذيب دامغ لنظرية الشعب غير المحارب.

والحقيقة أن مصر كانت دائماً – والقول لجمال حمدان – شعباً محارباً بقدر ما كانت شعباً بناءاً، وكان المصري قديماً وحديثاً هو الإنسان المحارب، كما كان الإنسان الصانع .. فلقد فرض الموقع المتحدي أن يصبح الشعب المصري هو الشعب المقتحم، مثلما فرض عليه أن يكون الشعب اليقظ الواعي للعالم المحيط، أي أننا كلما جعلنا الموضع – النهر – شعباً بناء صناعته الحضارة، فإن الموقع الحساس جعلنا، وبنفس القوة والضرورة، شعباً محارباً مقاتلاً وظيفته الدفاع.

نعم الدفاع، فهذه هي الكلمة المفتاح، فمصر كانت تختلف عن شعوب الرعاة والبدو وأنصاف البدو والرحل المحيطة بطبيعة الحال، فهي غنية وهم بيئات فقيرة قد يطمعون فيها، وهم لا يملكون ما ينفقون فيه طاقتهم إلا الهجوم والغزو، فهم محاربون باليدين، ولكن مصر بالضرورة تبني بيد وتحارب بالأخرى، ولهذا لم تكن مصر جيشاً قائماً دائماً تحت السلاح، وإنما كانت جيشاً احتياطياً مستعداً للاستدعاء عند أي تهديد خارجي، وتلك عموماً هي الفروق الاستراتيجية التقليدية بين الرعاة والزراع. (وهذا فى تقديرنا بعد اليوم وبعد ثورة يناير ٢٠١١، رداً على المتبجحين من مثقفى مشيخيات الخليج على الشعب المصرى) .

وفي موضوع آخر يقول حمدان رداً على هذه النظرية:والمغالطة في هذا الموقف تكاد تشبه ما يشاع عن الألمان والفرنسيين، حيث يقال عادة إن الألمان شعب محارب والفرنسيين ليسوا كذلك، فقديماً غزا برابرة الجرمان التيوتون فرنسا وأخضعوها ثم استقروا فيها - خاصة الفرانك - حتى أصبحوا هم جزئياً "الفرنسيين" فكيف يصح أن هؤلاء الفرنسيين شعب غير محارب مع أنهم ألمان الأمس المحاربون، غزوا وفتحوا واستقروا؟ واضح في المثالين أن الفرنسي كالمصري، وفي الحالين الجنس كالبيئة، أن النظرية متناقضة داخلياً نفسها بنفسها، ولا محل علمياً - وخارج انحرافات الحرب النفسية التحريفية والدعاية السياسية المحترفة - لأي تشكيك في الصفة الحربية والخصائص القتالية لأي من الشعبين أو البلدين.

العيب الخامس: نظرية جناية الموقع:

تبقى أخيراً وفقاً للدكتور جمال حمدان في مجال تنفيذه للانتقادات الاستراتيجية الموجهة لمصر من قبل المستشرقين وأنصاف المثقفين العرب ، تبقى نظرية أكثر انتشاراً ولكنها ليست أكثر صحة .. تلك نظرية أن الموقع قد جنى على مصر، بمنطق أن "من يقف في مفترق الطرق تدهمه السيارات"، ولعل هذه النظرية أشد التصاقاً بالعصر الحديث خاصة وبعصر قناة السويس بالأخص، والواقع أنها من صنع وترويج الاستعمار الغربي، فمنذ وقت مبكر والاستعمار يروج لفلسفة غربية مؤداها أن بلداً بموقع مصر لا يمكن أن يكون ملكاً خاصاً لنفسه، وأنه منذ شقت قناته لا يمكن إلا أن ينتمي إلى "العالم المختصر" على العموم والشيوع.

هذا مثلاً رينان – المستشرق والمتعصب الغربى المعروف – يقول عن مصر "إن بلاداً لها مثل هذه الأهمية لباقي العالم لا يمكن أن تكون مستقلة تماماً من الوجهة السياسية"، وبالمثل يقول هانوتو الذي زعم أن مصر لا غنى لها عن الأجانب، وأن مركزها الجغرافي يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التي تهيمن على البحر المتوسط، ومثلما ذهب كول "لقد كان قدر مصر المحتوم أن تكون أرضها على درجة قصوى من الأهمية للشعوب الأخرى"، وإذا كان كاتب حديث آخر مثل آندريه سيجفريد يردد نفس الفكرة، فيكفينا هنا تعليق جوبليه، حيث يصفها بأنها نظرية بالية، على أنها لم تكن دائماً كذلك حتى بيننا نحن أنفسنا، فمن قبل رفض محمد علي فكرة شق قناة خشية أن تتحول إلى "بسفور ثانية" كما قال، وكما خشي نخاو قبله بأكثر من ٢٥٠٠ سنة!، ومن بعد كانت تلك الفكرة الشائعة بيننا حتى اليوم من أن الموقع – الذي كان ينبغي أن يكون رأسمال عسكري لمصر كما قد صار لها رأس مال تجاري – جاء نقمة لا نعمة، وعواناً عليها لا عوناً لها.

* أيمكن حقاً أن تكون صحيحة تلك النظرة أو النظرية؟ يتساءل جمال حمدان ويرد من زاوية الأمر الواقع، الواقع التاريخي أعني، ليس شك بطبيعة الحال أن موقعنا الجغرافي وقناتنا الاستراتيجية قد اتخذت بالفعل مبرراً لتوطن الاستعمار وإزمانه، وليس من الصدفة أن تكون مصر – باستثناء عدن – أول وحدة في المشرق العربي تخضع للاستعمار الأوروبي، بل لا شك أن القناة سهلت على الاستعمار مهمته خارج مصر – كما في الهند مثلاً – حيث قدمت طريقاً مباشراً فعالاً لاستخدام القوة وكبت المقاومة، بمثل ما أن هذا التوطيد الذي قدمته القناة لجهاز الاستعمار اتخذ

بدوره ذريعة لمزيد من التمسك بمصر.ولا جدال كذلك أن خطورة موقعنا وأهميته أخرتا من استقلالنا وقدرتنا على التحرر نسبياً، برغم عظم المقاومة الوطنية في قلعة النضال القومي، ويتضح هذا إذا ما قورنت مصر بالدول العربية المجاورة، إلا أن هذا الموقع في تقديرنا كان نقطة قوة لنا، ولكنا لم نستغلها، ومن ثم تحولت إلى "نقطة ضعف" وهذا ذنبنا وليس ذنب الموقع.

* تلك حيثيات دفاع (جمال حمدان) عن مصر .. وهي لا تحتاج إلى مذكرات دفاع، أو حتى حكم قضاء، لأنها تكفي في ذاتها.. وكانت من حيث لا يدرى حمدان سبباً واضحاً لثورة الشعب المصرى بعد عشرين عاماً على استشهاد جمال حمدان على حكم المستبد حسنى مبارك المفرط ليس فى الموقع فحسب بل فى الموضع أيضاً إذ سعى لاحتلال واختلال الاثنين معاً، لقد جاءت ثورة يناير ٢٠١١ لتؤكد على صدق جمال حمدان فى تبنيه فكرة المقاومة والثورة لدى الشعب المصرى ضد المستبدين والغزاة والتى كانت المدارس الغربية وجزءاً مهماً من النخبة العربية تتبناها لتشويه الشخصية المصرية فجاء جمال حمدان ليفند ذلك وينتصر لها ويمهد للثورة (ثورة يناير) بكلماته الرائعة تلك !! .

جمال حمدان والبعد الاقتصادى

تصرخ كلمات (جمال حمدان) منذ الستينات وحتى الثمانينات (موعد صدور شخصية مصر) بنداء واحد، ينم عن عشق قوي حميم لمصر، أرضاً وشعباً، وتاريخاً وحاضراً، إنه نداء يحذر من تحلل الأمة وتحولها إلى شيء غير ذي قيمة، لا هو دولة، ولا هو أمة، إنه نداء ينبه أن (الأمة في خطر)، وأن علينا أن نتدارك ذلك وسريعاً، وأن التدارك يبدأ باقتصاد الوطن الذي تحول إلى أداة لخنق الأمة، وتحول بأزمتنا السياسية على تنوعها وتناميها إلى أداة لتعطيل النهضة وإيقاف قطارها ، وأن سبيل مواجهة الانهيار هو مقاومة الحاكم الظالم الذي جعل من مصر إرثاً يتوارثه وينهبه ، تماماً كما كان يفعل حسنى مبارك وابنه جمال ؛ فكانت ثورة يناير ٢٠١١ ثم ثورة ٣/يونيو ضد حكم الفاشية الاخوانية والوهابية .

ومع جمال حمدان، نحاول أن نبحث عن جوهر الأزمة المصرية قبل استشهاده عام ١٩٩٣ من واقع كتاباته وأبحاثه الهامة، وبخاصة كتابه (شخصية مصر) وهى ويالللمفارقة أزمة لاتزال قائمة حتى اليوم !! .

البعد الاقتصادي للأزمة:

بداية يرى الدكتور جمال حمدان أنه قد بات من المسلم به إجماعاً أن مصر تجتاز في الفترة الأخيرة (زمن حسنى مبارك) أزمة اقتصادية طاحنة خانقة كعنق الزجاجة، تكاد أغراضها تتمثل وتتغلغل في كل نواحي وجوانب الحياة الوطنية واليومية، ولا يكاد يبدو لها في الأفق القريب نهاية أو حل، والواقع أن مصر برمتها قد أصبحت "مشكلة من مشاكل" أي مشكلة عظمى

واحدة تتألف من حزمة كثيفة ضخمة من المشاكل النوعية والمنوعة، بل لقد وصل الأمر في تقدير البعض إلى حد أنها باتت تحل مشكلة بمشكلة أخرى، مثلما تفعل في مشكلة السكان بمشكلة الإسكان.

بل لقد أصبحت مصر تختص – حتى في تعبيراتنا – وشعاراتنا الشائعة نحن أنفسنا – بحفنة لا بأس بها من "الانفجارات": الانفجار السكاني، الانفجار الاستهلاكي، الانفجار الاستيرادي، انفجار الأسعار، انفجار التضخم، انفجار المجاري .. الخ، أصبحت مصر يعني "بلد الانفجارات" قل منذ السد العالي، بعد أن كانت بلد الفيضانات قبله، وهكذا في المحصلة غدت مصر أو بدت، للغرابة والدهشة، بل للحسرة والحيرة "دولة مشكلة بين دول المنطقة وربما العالم"، وعلى الأقل فإن الشائع أنها إحدى الحالات القليلة من دول العالم الثالث التي تزداد تخلفاً وتأزماً بدل التقدم والتطور.

قليل من العجب، بل لا عجب على الإطلاق، أن قد تساءل البعض مؤخراً عما إذا كانت "المسألة المصرية" قد عادت أو توشك أن تعود من جديد ولكن في شكل جديد، شكل اقتصادي بدل السياسي، فلقد كانت مشكلة مصر في الماضي – أثناء القرن التاسع عشر – هي مشكلة مياه أساساً، وكانت المياه جوهر مشكلتها السياسية، أما الآن فيكاد يبدو – أليس كذلك؟ – أن مشكلة مصر هي الغذاء أكثر من الماء، حتى باتت مشكلتها السياسية هي الاقتصاد، والاقتصاد هو الشكل الجديد للمسألة المصرية.

أياً ما كان الأمر – والقول لجمال حمدان – فلا يمكن ولا ينبغي لأحد أن يهون من هذه الأزمة أو يستهين بها، فما لم تعالج في أمد معقول فإن نتائجها على نظام المجتمع المصري وعلى الشخصية المصرية ذاتها يمكن

أن تكون مدمرة أو مشوهة على أقل تقدير، ذلك أن الهيكل العظمي للاقتصاد المصري خرب حتى النخاع، وهي ليست مجرد أزمة على السطح، ولا أمل لشعبنا الصامد إلا في حل جذري يتمثل في إلغاء سياسة الانفتاح والعودة إلى سياسة التنمية المخططة المستقلة (لنتأمل هذه النصيحة الغالية للشهيد د. جمال حمدان ومدى صدقها ومدى احتياجنا لها اليوم ٢٠١٣ بعد اقتراب مصر من حد الإفلاس) .

ولعل أسوأ خصائص هذه الأزمة – وفقاً لحمدان – أنها تبدو ككومة معقدة من الخيوط المتشابكة، تتداخل ككل في نسيج الحياة الاقتصادية برمتها، بينما يتشابك هذا النسيج بدوره وبطبعه مع صميم الحياة البشرية جميعاً بكل تضاعيفها وتلافيفها، مما ينعكس مباشرة على أدق دقائق الحياة اليومية للمواطن العادي، الأزمة بصيغة أخرى، تشكل حلقة مفرغة لا تبدو لها بداية ولا نهاية، الأعراض فيها تختلط بالأمراض، والأسباب الناتجة والعلة بالمعلول، على أننا نستطيع أن نحاصرها ونحصرها في خمس مشاكل محددة: الانفجار الاستهلاكي، التضخم والدخل، أزمة المرافق والخدمات، الاستدانة والقروض الأجنبية، مشكلة الغلاء.

الانفجار الاستهلاكي:

يرى جمال حمدان أن أول وأشمل – مثلما هو أبسط وأبرز – أعراض هذه الأزمة هو الانفجار الاستهلاكي، فهو يعني أن أعبائنا تزيد كثيراً عن مواردنا، وأننا نعيش خارج حدود دخلنا، ننفق أكثر مما نملك ونستهلك أكثر مما ننتج، وبالتالي فإننا نعيش الآن بالكاد "من اليد إلى الفم" بل وربما على

رأس مالنا كدخل، وهذا ما يكمن خلف جميع مشاكلنا الاقتصادية الأخرى من عجز في الميزانية وفي ميزان المدفوعات والميزان التجاري، ثم ما يترتب على ذلك من استدانة فتضخم فغلاء فانخفاض في مستوى الدخل والمعيشة، إلى آخر الدائرة المفرغة المعهودة.

الأرقام تتحدث:

وسندع الأرقام تتحد وفقاً لكتاب (شخصية مصر) في سنة ١٩٧٥م مثلاً بلغ الدخل القومي حوالي ٤٨٥٣ مليون جنيه، أي بزيادة (أو بالأصح بعجز) نحو ٢٧% عن الموارد المتاحة بالمثل في السنة التالية ١٩٧٦: الأعباء القومية ٧٣٠٣ ملايين جنيه، بينما الموارد الذاتية والمتمثلة في الناتج القومي لا تعدو ٥٢٤٣ مليون جنيه، بعجز قدره ٢٠٦١ مليون، وموزع بين عجز في الميزان التجاري حجمه ٨٧١ مليون جنيه وبين التزامات أجنبية قدرها ١١٩٠ مليوناً، وفي العام ١٩٨٢ وصل حجم العجز في ميزانية الدولة إلى ٤٥٠٠ مليون جنيه.

مؤشر آخر دال: إجمال الناتج المحلي مقارناً بالاستهلاك الاجمالي، مثلما يقدم الجدول الآتي الذي يتتبع تطور الناتج المحلي خلال العقد الماضي بأسعار سنة ١٩٧٥، ثم قيمة الاستهلاك الإجمالي وذلك بالمليون جنيه:

البنك	١٩٧١/٧٠	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	معدل النمو السنوي ١٩٧٤/٧٠
الناتج المحلي	٤٠٠٥	٤٠٠٥	٤٥٨٨	٥٥٢١	٥٩٠٧	٦٥٣٢	٧٠٦٥	٣,٥
الاستهلاك	٢١٤٠	٢١٤٠	٣٩٧٢	٥٥٣٦	٦٦١٤	٨١١٩	١٠٦٨١	٧,٨

نلاحظ أن الناتج كان يزيد على الاستهلاك في النصف الأول من العقد، ولكن الوضع انعكس في نصفه الأخير، ففي بداية السبعينات كان الناتج نحو ضعف الاستهلاك، ثم أخذ الأخير يتزايد بسرعة والتقارب بينهما يشتد، حتى وصلا إلى نقطة التعادل تقريباً سنة ١٩٧٦، ثم استمر الاختلال في إطراد حتى ناهز الاستهلاك الناتج نحو المثل ونصف المثل، وذلك بعجز قدره أكثر من ثلاثة بلايين جنيه، وخلال العقد ككل، كان متوسط معدل النمو السنوي المحلي أقل من نصف متوسط الاستهلاك أو ٣,٥% مقابل ٦,٨% على الترتيب.

بصيغة أخرى، وفي تقدير آخر مختلف نوعاً، فإن مجمل الاستهلاك تضاعف في عقد واحد نحو أربعة الأمثال، فارتفع من ٢,٨ بليون جنيه سنة ١٩٧٠ إلى ١٠,٦ بليون سنة ١٩٨٠ بنسبة ٣٨٠% تقريباً، من هذا الرقم كان نصيب الاستهلاك الخاص نحو ٢٠٠٠ مليون جنيه في سنة ١٩٧٠، ٨٠٠٠ مليون في سنة ١٩٨٠ أي بنسبة ٤٠٠٠%ن بينما كان نصيب الاستهلاك العام ٨٠٠ مليون، ٢٦٠٠ مليون على الترتيب، بنسبة ٣١٠% بالتقريب.

وعدا التهريب المكثف من المناطق الحرة الجديدة - خاصة بورسعيد كباب جانبي - فلقد ساعد على هذا المد الاستهلاكي المريض انفتاح باب الاستيراد على مصراعيه، فحمى الاستهلاك نتيجة، مثلما هي سبب، لفوضى الاستيراد، وهنا يأتي على رأس القائمة الاستيراد بدون تحويل عملة، ذلك النظام الفريد الذي لا مثيل له في العالم في أي اقتصاد متقدم أو متخلف، رأسمالي أو اشتراكي، والذي يرتبط أساساً بتحويلات المصريين المغتربين

العاملين في الخارج وخاصة دول البترول العربية (بلغت قيمة الاستيراد بدون تحويل عملة في سنة ٨٠- ١٩٨١ نحو ١٠٨٩ مليون جنيه، أي أكثر من مليار).

حتى السياحة أصابتها هي الأخرى حمى الاستهلاك وإن كان بطريقة معكوسة، فمن السخرية حقاً أنه في الوقت الذي نعاني فيه سلعياً من الانفجار الاستيرادي والانهيار التصديري، تحولنا في السياحة على العكس إلى انفجار تصديري وانهيار استيرادي، حيث رأينا الميزان السياحي ينقلب مؤخراً ضد صالح مصر. (لنلاحظ : وكأن جمال حمدان يعيش بيننا اليوم عام ٢٠١٣ فذات المشاكل وإن كانت الأرقام تضاعفت عشرات المرات !!).

الدور التخريبي للبترول العربي:

يؤكد العالم الجليل الدكتور جمال حمدان أن هذا كله يقودنا إلى دور البترول العربي المزدوج في دفع المد الاستهلاكي عندنا، ذلك أن تأثيره يضغط مرتين، مباشرة وغير مباشرة، فهو بدخوله الخرافية السهلة يمثل من ناحية حلقة الوصل أو الموصل الجيد، الذي ينقل جزئياً نموذج الاستهلاك الغربي الأوروبي والأمريكي المتطور الباذخ البالغ الترف إلى منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي، بحيث فرض عدواه فرضاً على مصر حتى لا تتخلف أو تتقهقر، وبهذا أصبحت مصر محاصرة بين هذين القوسين حصاراً محكماً ومباشراً.

من الناحية الأخرى فإن مكاسب المغتربين المصريين بدول البترول العربي أكثر من نصف تحويلاتها إلى الوطن يتحول إلى تمويل للاستيراد

بدون تحويل عملة، وينصب نهائياً فى الاستهلاك الترفي الصرف، بينما يتحول نصفها الآخر محلياً إلى ضغوط طلب واستهلاك وتضخم، تضخم منقول وأصيل، مستورد ومولد.

وهكذا يختم د. حمدان تحليله بقوله: إنه وفي المحصلة سقطت مصر استهلاكياً بين تحديين: نموذج الغرب الأوروبي الأمريكي البالغ التقدم والتطور ولكن أيضاً البالغ القوة إنتاجياً، وتقليد البترول العربي البالغ الثراء ولكن البالغ الضعف إنتاجياً، غير أن مصر تخطئ حقاً، وقد أخطأت فعلاً، إذا هي سمحت لنفسها - تحت أي اسم أو مبرر - أن تستدرج إلى سباق استهلاكي سفيه.

جمال حمدان و البعد السياسي

فعلى طرف النقيض الأقصى والمطلق من مصر الاقتصادية، وعلى خلاف مصر الاجتماعية إلى حد بعيد، يرى د. جمال حمدان أنه لم تكد (مصر السياسية) تتغير أو تعرف التغير، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع، آخر وأقل ما يتغير في مصر، إنها قمة الاستمرارية والثوابت، وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر.

لكنها للأسف والأسى بالطبع، أسوأ استمرارية وشر الثوابت على وجه اليقين والإطلاق، ذلك أنها هي بالتحديد النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعاً، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغيير قبل العصر الحديث وبعده، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين.

ويتساءل د. حمدان، والسؤال ببساطة هو: هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة؟ والحديثة عن القديمة؟ في قضية التركيب الاجتماعي - السياسي ونظام الحكم والسلطة، وإلى أي حد؟ ويجيب: التغير الجوهري في الشكل، أما الجوهر فلم يتغير، وهذا الجوهر هو الطغيان الفرعوني، بكل أعمدته التقليدية، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم الذي يجري خلال تاريخ مصر كله من مينا حتى اليوم المتغير الوحيد هو الشكل: ملكية أو جمهورية، وراثية أو انتخابية، مدنية أو عسكرية، وذلك بحسب الظرف أو العصر.

فقديماً كان الفلاحون "عبيد فرعون" ثم "عبيد السلطان"، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً "عبيد الرئيس" فنحن يقينا مازلنا بين فراعنة وفلاحين، ورعايا لا مواطنين، ومازال الاستقطاب الطبقي الجوهري هو بين الحاكم والمحكوم، وتلك في كلمة واحدة، هي "الفرعونية" الجديدة أو المحدثة، أو "الفرعونية" الخبيثة أو السرية.

فإذا كان محمد علي قد عد آخر المماليك العظام وأول الفراعنة الجدد، فقد عد عبد الناصر من بعده أول المماليك الجدد وآخر الفراعنة العظام، (والاثنان - بالمناسبة أو على الهامش - نموذج مثالي للأشباه المتضادة أو الأضداد المتشابهة)، هذا بينما كان العالم يطلق على آخر وأدنى حكام مصر السابقين علناً وبصفة عادية "فرعون مصر الأسود" (كذا)، في حين يطلق العدو الإسرائيلي حتى الآن على ما نسميه "ديموقراطيتنا" حالياً اسم "الديموقراطية الفرعونية" ليس فقط سخرية وتهكماً ولكن أساساً : إسقاطاً وكتابة.

وبمزيد من التوضيح يقول د. حمدان: فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البرجوازي الليبرالي البرلماني المتعدد الأحزاب، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت حكم إسماعيل وقبل كثير من الدول الأخرى، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء، وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية رجعية، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود.

معارضة الحاكم في مصر

فالحرية كلمة "مستوردة" لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي، ولكن كإسم لا كفعل. فالقاعدة الأصولية في مصر – والتي لا تزال مرعية بأمانة حتى اليوم – هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخرى، أو على الأقل فإنه هو "الحقد" الذي لم يجد له قط علاجاً، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده.

أما المعارضة – رغم الاسم والرسم – فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية إلى اليوم إلا رمزاً وإلا شكلاً، والرأي الآخر والرأي العام لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط، قد يهمس به سراً أو يطلقه شائعات، وعلى الجملة فإن المعارضة إن لم تكن "مزروعة" كديكور للديكتاتورية أو ملفقة كتمثيلية مرتبة جيدة الإخراج أو داجنة "مستأنسة" كشكلية وكحلية تابعة كما هي عاجزة، فإنها تعد في الأغلب تزايداً و"زائدة دودية" لا مبرر لها ولا وظيفة، ويحسن جداً استئصالها، أو هي تعد على أفضل تقدير "سخافة ورذالة مثقفين"، وعليها في كل الأحوال أن "تلزم حدودها وتتعلم حدود الأدب في مخاطبة الدولة"، وهكذا إلى آخره.

من هنا جميعاً، فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصلية والأصيلة، وليست في جوهرها سوى الترجمة العصرية المحسنة والمزينة للطغيان الشرقي، بل

والشكل العصري لعبودية العصور القديمة، إنها حرفياً وحرفياً الديكتاتورية البرلمانية الزائفة.

لذا يمكننا - والديموقراطية أكثر شيء نسبية إن لم تكن أكثر شيء مطاطاً - أن نسميها بحق "الديموقراطية الشرقية"، كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي، ويمكنك أيضاً أن تسميها "ديموقراطية العالم الثالث" أو كتركيب مزجي اختزالي "الديموكتاتورية"، فهي تجمع بين أسوأ ما في الطغيان الشرقي وهو الديكتاتورية، وأسوأ ما في الديموقراطية الغربية وهو الشكل الدستوري المخادع.

ولكي نستكمل الصورة يقول د. جمال حمدان: فبعد عصر الملكية انتقلت مصر المعاصرة بدرجة أو بأخرى إلى النموذج الشرقي الاشتراكي الشمولي بنظام حزبه الواحد الديكتاتوري المطلق، وسواء كنا اشتراكيين بالفعل كما جادل البعض، أو انتقلنا من الإقطاع عبر مرحلة شبه اشتراكية إلى الرأسمالية كما نظر البعض الآخر، فالواضح أن مصر المعاصرة، بينما استبقت جوهر النظام الاقتصادي والاجتماعي الطبقي بعد تطويره مع روح العصر نفسه، قد أخذت من الاشتراكية الاسم والواجهة أولاً وشكلاً، ثم مبرر الطغيان والحكم المطلق والشمولية ثانياً وأساساً.

وهكذا - يقول د. جمال حمدان - تلخص التحول الجديد في معادلة محددة ولكنها محزنة وهي: من دولة بوليسية "وسطية" تحكمها الشرطة إلى دولة بوليسية "عصرية" يحكمها الجيش، أو من ملكية بوليسية إلى جمهورية عسكرية، أو أخيراً من إقطاع مدني إلى إقطاع عسكري، وبعبارة أخرى - كما شخص بعض منظري العهد فيما يعد - انتقلت مصر من

"أوتوقراطية" الملكية إلى "مونوقراطية" الجمهورية، في حين اختزل البعض الآخر الوضع كله في أنه مزيج من الفرعونية الجديدة والمملوكية الجديدة.

بل سرعان ما ظهرت أعراض عريضة وميول جامحة جانحة من مظاهر الملكية بل والإمبراطورية، كأنما هي ملكية مؤقتة غير وراثية غي مدنية، أي باختصار ملكية مقنعة، فهذا، مثلاً، تكاد تقول أول "إمبراطور جمهوري" وهذا أول "ملك جمهوري"، وهذا وهذا إلى آخره، وتلك جميعاً هي بكل وضوح أعراض وأمراض الحكم المطلق وحكم الفرد.

الحاكم هو جوهر الأزمة:

ولو أن هذا كان مشكلة داخلية فحسب، يعني لو أن مشكلة "مصر (وبالتحديد أيام حسنى مبارك) هي حاكمها" اقتصرت على السياسة الداخلية والطغيان المحلي، لهان الخطب نسبياً، غير أن الواقع المرير أنها تمتد إلى السياسة الخارجية، ولعل هذا أسوأ ما في الأمر كله، فكما في معظم الدول المتخلفة كدول العالم الثالث والعالم العربي - ربما أكثر - السياسة الخارجية هي امتداد وانعكاس مباشر للسياسة الداخلية ونظام الحكم (لنلاحظ أن هذه الأقوال الشجاعة لجمال حمدان ، قيلت فى ذروة استبداد حسنى مبارك " نهاية الثمانينات " ولم يخف أو يتردد حمدان فى قوله ، الأمر الذى يجعلنا نجزم أنه كان بلاجدال أحد الأدباء الروحيين الحقيقيين والمؤسسين لثورة يناير ٢٠١١ التى أطاحت بحسنى مبارك وديمقراطيته المزيفة !!) .

بل إن سياستنا الخارجية - وفقاً لكتاب (شخصية مصر) للدكتور جمال حمدان - كانت ترتبط بسياستنا الداخلية أشد الارتباط وبدرجة قل أن تعرفها أي دولة أخرى في العالم، وأزمة مصر الخارجية هي دائماً أزمتها الداخلية في الأصل والمصدر والأساس، وحل الأولى هو حل الأخيرة أولاً وقبل كل شيء، وما زال صحيحاً أن حل مشكلة مصر الخارجية وتحريرها لابد أولاً أن يمر بالعاصمة داخلياً.

وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف، ليس ثمة شيء في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب - من الوجهة العملية - ولا أوهام في هذا أو انفعال، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً - وبغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة - حكر لرجل واحد هو الحاكم وحده لا شريك له، إنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر. (انظروا كيف أن هذا القول جاء فى ذروة جبروت حسنى مبارك وزبانيته من المخابرات وأجهزة الأمن ، فلم يخف أو يتردد جمال حمدان فى قوله وبشجاعة تحسب له) .

* هذا ويرى د. جمال حمدان أن مكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية انتصارها وهزيمتها عسكرياً، مصيرها وبقاؤها ... الخ، كل أولئك بيد شخص فرد واحد بينما الشعب مقود غصباً ولا شيء عملياً والنتيجة المنطقية، ولا نقول الحتمية، هي الهزيمة والنكسة ثم الاستسلام والنكبة، فقط "أنظر حولك".

الفرعونية السياسية الجديدة

ديمقراطية الأنياب

من هنا كانت الفرعونية الجديدة هي ببساطة ولكن بصرامة "الفشل في الداخل والهزيمة في الخارج"، "الطغيان في الداخل والركوع في الخارج"، ومن الصعب أن نحدد من السبب ومن النتيجة: هل الهزيمة العسكرية في الخارج نتيجة عقابية للاستبداد الانقلابي الجبان في الداخل، أم أن الاستبداد الداخلي هو تعويض مريض عن العجز والانكسار المشين في الخارج؟

الشيء المؤكد على أية حال - والمؤسف في كل الأحوال - أن التجربة المريرة المفجعة قد أثبتت أن السياسة الخارجية عندنا هي إلى حد بعيد معكوس السياسة الداخلية مثلما هي انعكاس لها، أو إن شئت فقل انعكاس عكسي، وهذا هو الثمن الفادح والمضاعف للطغيان المستبد والاستبداد الغاشم.

فإذا ما عدنا من هذا الحصاد المر في الخارج والداخل لنرى الثمرة النهائية، فإن الديموقراطية الجديدة هي كما وصفت نفسها بنفسها "ديموقراطية ذات أنياب"، فهي إذاً ديمقراطية "أنيابية" أكثر منها نيابية، وبالتالي تحقق نفس أغراض النظام السابق، ولكن فقط من خلال شكلية سيادة القانون، ثم إن الحديث عن أنياب للديموقراطية ينفي - بل وينسف - مبدأ الديموقراطية وجوهرها فوراً، إذ حالما تنبت للديموقراطية أنياب فإنها تسمى في كل اللغات الفقهية ديكتاتورية بلا موارية.

إلى هذا كله يضيف البعض – والقول لجمال حمدان – في النهاية أن الحديث عن الديموقراطية أصلاً – قبل هذا وبعده – غير وارد أو جائز على الإطلاق، فإنما الديموقراطية بالتعريف هي حكم الشعب للشعب بالشعب – لا بالجيش – وليس ثمة شيء في القاموس السياسي أو الفقه القانوني "كديمقراطية عسكرية" أو "كديمقراطية مسلحة" مثلاً، إلا أن تكون من قبيل التناقض اللفظي أو التورية الساخرة أو الكناية المستترة عن "الديكتاتورية العسكرية" أو "الديكتاتورية المسلحة" باختصار، مجرد الحديث عن الديموقراطية في ظل "العسكرقراطية" إنما هو امتهان للعقل البشري وإهانة للإنسان المصري " ، [وتلك كانت أزمة مصر إبان عصر حسنى مبارك وعصر الاخوان ويبدو أنها لاتزال مستمرة وبحق، ولا أزمة سواها وفقاً لما انتهى إليه العالم الجليل الشهيد الدكتور جمال حمدان، ترى هل ينبئنا الواقع المصري بغير ما ذهب إليه جمال حمدان وانتهى إليه؟ أليست هذه هي الحقيقة المرة التي تهدد (شخصية مصر) فى زمن الإخوان والتيارات السلفية الوهابية المخاصمة لروح الإسلام الحقيقية وللوطن المصرى الذى لا تراه أصلاً وطناً يستحق الحياة الطيبة أو حتى البقاء !!] .

* إن حمدان يجيبنا قائلاً ومحذراً: إن مصر تجتاز اليوم أخطر عنق زجاجة، وتدلف أو تساق إلى أحرج اختناق في تاريخها الحديث، وربما القديم كله، إن هناك انقلاباً تاريخياً في مكان مصر ومكانتها، ولكن من أسف إلى أسف وإلى وراء، نراه جميعاً رأي العين، ولكنا – فيما يبدو – متفاهمون في صمت على أن نتعامى عنه ونتحاشى أن نواجهه "في عينه" ووجها لوجه، ونفضل أن ندفن رؤوسنا دونه في الرمال، لقد تغيرت ظروف

العالم المعاصر والعالم العربي من حولنا، فلم يعد بعد الأول بعداً ثانياً، ولا عاد الثاني مجرد "أصفار على الشمال".

* ثم يقول – حمدان – محذراً ومنذراً من جديد لمن في قلبه فهم سليم وحب حقيقي لمصر:لقد أفسدت الاستمرارية السياسية، استمرارية الفرعونية،ما أصلح انقطاع الحضارة الحديثة، ذلك أن مرض مصر المزمن في الحاضر والموروث من الماضي هو حاكمها ونظامها، نظام الحكم باختصار،فلقد تغيرت مصر في كل شيء تقريباً إلا شيئاً واحداً هو النظام السياسي، وهو وحده الذي يقاوم بضراوة ودموية كل تغير يجمد الشخصية المصرية ويحنطها فرعونياً" انظروا إلى عبقرية هذا التوصيف لنطبقه على حال مصر اليوم بعد ثورة يناير سنجده صحيحاً تماماً .

ومعنى هذا ونتيجته ، يقول حمدان المبشر بالثورة : " أن شخصية مصر قد تغيرت، ولكن لم تتغير الشخصية المصرية بالكاد، ولم يبق إلا تغيير ذلك النظام لتلحق الشخصية المصرية بشخصية مصر الجديدة. لقد تحرر الإنسان المصري أخيراً – أو يوشك أن يتحرر من التخلف – ولكنه لم يتحرر قط أو بعد من الأسر، ظفر بالتنمية نسبياً ولكنه لم يظفر بالحرية إطلاقاً، أصبح إنساناً متقدماً نوعاً ولكن ليس إنساناً حراً حقاً " .

هل هناك أبلغ وأوفى دلالة من هذا القول؟ كأن هذا العالم لايزال يعيش معنا فى زمن الثورات الأمريكية فى المنطقة والتى اختطفتها أمريكا وركبت على بعضها إسرائيل !! .. رحم الله العالم الجليل والوطني الغيور والبحاثة الفذ الدكتور جمال حمدان.

سيناء فى عيون جمال حمدان

هكذا وصف جمال حمدان سيناء: صندوق الذهب وليست صندوقًا للرمال

"سيناء إذن ليست مجرد صندوق من الرمال كما قد يتوهم البعض إنما هى صندوق من الذهب مجازا كما هى حقيقية» تلك هى النتيجة التى يقودك إليها وصف الدكتور جمال حمدان لشخصية سيناء، من زاويتى الجغرافيا والتاريخ، وهى من الكلمات الأخيرة للعالم الكبير، والتى جمعها فى كتاب واحد قبيل وفاته عن بوابة مصر الشرقية، فى محاولة منه للحث على تعمير سيناء، كحل وحيد لحمايتها من الأطماع الاستعمارية على مر التاريخ .

بلغة أقرب إلى الشعرية، يصف حمدان كيف كانت سيناء على مر التاريخ موقعا للمعارك الضارية مع الغزاة، ف«حيث كان ماء النيل هو الذى يروى الوادى كان الدم المصرى الذى يروى رمال سيناء«، ولن تجد ذلك أمرا غريبا إذا أدركت أهمية الموقع الإستراتيجى لسيناء بالنسبة لباقى مصر بل وللقارة الأفريقية، فالمستطيل الشمالى منها، بتضاريسه المعتدلة وبموارده المائية كان طريقا للحرب وللتجارة على مر التاريخ، أو مركز الثقل الإستراتيجى لسيناء كما يصفه حمدان، ومع تطور تقنيات الحروب الحديثة أصبح المثلث الجنوبى لسيناء نقطة ارتكاز للوثوب على ساحل البحر الأحمر بالسلاح البحرى أو الطيران، وكذلك لتهديد عمق الصعيد

المصرى بالطيران، وتعد شرم الشيخ بمثابة المفتاح لهذا المثلث الجنوبى «فهى وحدها التى تتحكم تماما فى كل خليج العقبة دخولا وخروجا عن طريق مضيق تيران»، كما يقول حمدان.

بمعنى أبسط، ساهم تطور الحروب على مدار التاريخ فى تحويل سيناء إلى أرض معركة بعد ان كانت طريق معركة، ومن جسر حربى إلى ميدان حربى و«بالتالى من عازل استراتيجى إلى موصل جيد للخطر»، وبعبارات محددة يلخص حمدان دور سيناء فى نظرية الامن القومى المصرية فى ان «من يسيطر على فلسطين يهدد خط دفاع سيناء الاول، ومن يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط يتحكم فىسيناء، من يسيطر على سيناء يتحكم فى خط دفاع مصر الاخير»، وهو الدرس الجيوسياسى الذى دفع حمدان إلى قوله بأنه ينبغى بعد انتصار أكتوبر أن يكون انسحاب يونيو ١٩٦٧ «آخر انسحاب مصرى من سيناء فى التاريخ، كما أن خروج إسرائيل بعد ١٩٧٣ ينبغى أن يكون آخر خروج من مصر منذ يوسف وموسى"

وبالطبع يلعب الفراغ العمرانى فى سيناء، التى تمثل ثلاثة أضعاف الدلتا ويعيش فيها نحو نصف مليون مصرى، دورا مهما فى جعلها اراضى جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لأغراضه، إلا أن حمدان ينبه أيضا إلى أن هذا الفراغ يجعل من سيناء نهبا ومطمعا للمستعمرين، لذا «كان هناك دائما عدو يشكك بطريقة ما فى مصرية سيناء ويطمع فيها بصورة ما، بالضم، بالسلخ، بالعزل".

مصرية سيناء

ويتتبع حمدان التاريخ الطويل لمحاولات المستعمرين نزع الهوية المصرية عن سيناء حيث حاول الاحتلال البريطانى الترويج إلى أن سكان سيناء آسيويين لأنها جزء من قارة آسيا، وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ عادت اسرائيل تثير موضوع مصرية سيناء، وأثناء حرب أكتوبر ظهرت أصوات فى الغرب تدعو إلى تدويل سيناء مرة أو تأجيرها أو حتى شرائها كحل لجذور المشكلة، معلقا على تلك المحاولات الحائرة بلغته الشعرية قائلا إنها «قد تكون غالبا أو دائما أرض رعاة ولكنها قط لم تكن أرضا بلا صاحب.. منذ فجر التاريخ ..وسيناء مصرية"

وبلغة العلم، يسرد ملامح بطاقة الهوية السيناوية، لكى يثبت مصريتها للأجانب، ويكشف عن كنوزها للمصريين، حيث يقول إن سيناء تحمل بصمات مصر حضارة وثقافة وطابعا وسكانا بالقوة نفسها التى يحملها بها أى إقليم مصرى آخر، واصفا إياها بأنها «مصر الصغرى»، لكونها امتدادا وتصغيرا لصحراء مصر الشرقية.

أما عن السؤال الذى يثار عن سيناء آسيوية أم أفريقية؟ فلا يعنى شيئا، يقول حمدان، مضيفا «ببساطة لأن مصر نفسها جميعا كانت دائما فى آسيا بالتاريخ كما هى فى أفريقيا بالجغرفيا"

الكنوز الطبيعية فى سيناء

كان ذلك هو الرد العلمى لحمدان على الآراء التى تنتزع الهوية المصرية عن سيناء .اما الرد العملى لتلك الاطماع فهو يكمن فى كلمة

واحدة على حد قوله هى «التعمير»، واذا تتبعت وصف حمدان لسيناء ستشعر ان غياب العمران عنها حتى الآن ليس هدرا لإمكانية بقعة من أرض مصر فقط، ولكنه اهمال لقلب مصر النابض، لما تتمتع به من مميزات طبيعية، فلديها أطول ساحل فى البلاد بالنسبة إلى مساحتها فى مصر، وهى اقل صحارينا عزلة لكونها مدخل مصر الشرقى. وفى جيلوجيتها الإقليمية تكاد سيناء» تختزل جيلوجية مصر كلها تقريبا"

وبالرغم من أن سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية على أفضل الأحوال.. لكنها أغزر مطرا من الصحراوين الشرقية والغربية.

تلك الثروات الطبيعية تنتظر التخطيط الإستراتيجى الواعى الذى يطلق طاقات التعمير، التى تحتاجها مصر على مستوى الاقتصاد والأمن، فبعد درس العدوان الإسرائيلى فى ١٩٦٧، أصبح ربط سيناء بالوطن الأب.. بديهية أولية للبقاء، كما يقول حمدان.

وفى كتابه الذى أعده قبيل وفاته، رسم حمدان ملامح حلم التعمير السيناوى، حيث تطلع إلى أن يكون الساحل الشمالى غنيا بالزراعة والغربى نشيطا فى مجال التعدين والشرقى فى مجال الرعى، وان تكون قناة السويس مزدوجة ويتجمع العمران الكثيف حول ضفتيها، وأن تكون هناك سلسلة من الأنفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات البرية والحديدية .

سيناء قدس أقداس مصر

تمر الأيام وتحل الذكري وتهل ذكري ٢٥ أبريل "عيد سيناء" ورغم أية تحفظات ورغم كل التحفظات فهو عيد بحق لا يخل به سيادة "مجروحة" أو بها خدوش مصيرها طال الزمن أو قصر إلي زوال بارادة وطنية لا تلين وبقوي جيش يعرف رسالته ويتحمل اعباءها وفي هذا فإن الذكري نافعة نافعة تتيح القاء نظرة إلي مستقبل مأمول كما تتيح فرصة ل "جردة حساب" مع عام مضي: ماذا فعلنا؟ ماذا انجزنا في سيناء كي تقف علي قدميها وتستطيع ان تواجه اخطارا تتهددنا وتهددنا فالموقف يتحدد استراتيجيا هنا كما حدده العلامة جمال حمدان رحمه الله في المعادلات التالية:

من يسيطر علي فلسطين يهدد خط دفاع سيناء الأول..

من يسيطر علي خط دفاع سيناء يتحكم في سيناء.

من يسيطر علي سيناء يتحكم في خط دفاع مصر الأخير.

من يسيطر علي خط دفاع مصر الأخير يهدد الوادي ومن هنا والكلام ايضا لجمال حمدان فإن سيناء أخطر وأهم مدخل لمصر علي الاطلاق انها "قدس أقداس مصر" بلغته الشاعرية التي تحيل الجغرافيا والتاريخ والاستراتيجيا إلي شعر ويكتب العلاَّمة قصيدة حب في وصف سيناء في أهميتها. في كونها واسطة العقد في منطقتنا العربية مما يجعلها "طريق الحرب" بالدرجة الأولي وهنا تفرقة أساسية بين "طريق الحرب" و"أرض المعركة" انها معبر أرضي جسر استراتيجي معلق أو موطئ عبرت عليه

الجيوش منذ فجر التاريخ عشرات وربما حرفيا مئات المرات جيئه وذهابا تحتمس الثالث وحده عبره ١٧ مرة.

ثم يضيف إنه ان تكن مصر ذات أطول تاريخ حضاري في العالم فإن لسيناء أطول سجل عسكري معروف في التاريخ تقريبا ولو أننا استطعنا ان نحسب معاملا احصائيا لكثافة الحركة الحربية فلعلنا لن نجد بين صحاري العرب وربما صحاري العالم رقعة كالشقة الساحلية من سيناء حرثتها الغزوات والحملات العسكرية حرثا.

هذه الأغنية السيناوية لم ترد في موسوعة جمال حمدان "شخصية مصر" بل كتبها في كتاب ربما لم يلق ما يستحقه من الشيوع والانتشار وهو بعنوان: "٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية" وهو يقع في حوالي ٤٠٠ صفحة ويبدو أنه كتبه في ظل أيام اكتوبر المجيد. اكتوبر ١٩٧٣ وقد صدر الكتاب علي الارجح في النصف الثاني من عام ١٩٧٤ وقبل انعقاد مؤتمر جنيف في نوفمبر من ذلك العام وفي هذا الكتاب يتجلي حماس جمال حمدان وتدفقه ومدي الآمال التي عقدها وبحق علي جولة ١٩٧٣ ورغم الحماس فانه وضع هذه الحرب في اطارها الصحيح في جولات حروبنا ضد العدو الصهيوني وفي اطار التأثيرات الاستراتيجية العالمية التي خلفتها هذه الحرب والتي بددتها الإدارة السياسية للحرب ولم يكن هذا قد وضح كاملا عند كتابة هذا الكتاب الذي ان جاز أن نتجاوز حديثه عن الحرب وآثارها إلا أننا لا يمكن بحال ان نتجاوز حديثه الساخن عن سيناء وقيمتها واهميتها ولعل التقييم الحماسي للحرب يتضح من قوله:

كلا ليست حرب اكتوبر التحريرية العظمي والماجدة مجرد المكافئ الموضوعي أو الرد الاستراتيجي علي نكسة يونيو وليس ٦ أكتوبر الخالد مجرد نسخ او ناسخ ليوم ٥ يونيو الحزين ففي يقين هذا الكاتب ان التاريخ سوف يسجل ٦ اكتوبر كأخطر وأفعل مثلما هو اعظم واروع تحول مؤثر في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي المفعم وبالتالي في تاريخ العرب جميعا ومن ثم ودون افراط في المبالغة في تاريخ العالم المرئي وقد استشعر هو نفسه ان "الحماس اخذه" في أيام فاصلة مشحونة بالانفعالات المتوقدة والتوتر المضطرم والترقب المتلهف مما لا يترك مجالا للرؤية المتأنية ولا للفكر المتردي.

والحقيقة ان حرب اكتوبر تستحق كل هذا الحماس والانفعال من قامة علمية في وزن جمال حمدان لولا ما جاء بعدها والذي تلخص يوما بأنها "آخر الحروب" وبأن أمريكا تملك ٩٩% من اوراق اللعبة في المنطقة ومن هنا يبدو كلام جمال حمدان عن سيناء في موسوعة "شخصية مصر" أكثر هدوءا وموضوعية دون أن يخل بالحقيقة التي سجلها بتعبيرات فذة من قيمة حرب اكتوبر في ذاتها وعن كونها السبب في تحرير سيناء وفي قبول "مناحيم بيجين" في كامب ديفيد ١٩٧٨ وما تلاه الخروج من سيناء كان بيجين يتحرك ويحاور ويناور وفي ذهنه ما حدث لإسرائيل وجيشها في الأيام الأولي من حرب العبور وما لا نريد تكراره كان أداء الرجال جنوداً وصف ضباط وضباطاً وقادة أداء خارقا رآه العدو "مفاجأة" وما هو بمفاجأة بل تعبير حقيقي عن شجاعة المقاتل المصري.

بن جوريون والهدف في سيناء

إن هذا يعيدنا إلي نظرة خاطفة علي مطامع الإسرائيليين في سيناء في الحاضر وفي الماضي القريب والتي حددتها كلمات قليلة كتبها "ديفيد بن جوريون" أول رئيس وزراء إسرائيلي وأحد الثلاثة الكبار الذين اقاموها الآخران هما تيودور هيرتزل وحاييم وايزمان في كتابه "سنوات التحدي" حيث يقول "ان هدف إسرائيل هو عدم البقاء في سيناء ولكن منع المصريين من البقاء فيها ولذلك وقف في الكنيست في ٧ نوفمبر ١٩٥٦ ومعارك العدوان الثلاثي لاتزال مستمرة ليعلن ان الهدنة مع مصر انتهت وقال ما معناه: لقد عدنا إلي أرض الآباء الغربية" ومؤشرات هذه الاطماع والمخططات مستمرة ولاتزال وهي تتردد كثيرا علي السنة كثير من الاسرائيليين ساسة وعسكريين ورجال احزاب وباحثين ولعل أنباء الأيام القليلة الماضية تفضح كل هذا الاتهام بأن صواريخ أطلقت علي إيلات خرجت من سيناء والدعوة إلي واشنطن كي تضغط علي القاهرة لتزيد نشاطها ضد الإرهابيين في سيناء ثم أخيرا وليس آخرا شبكة تجسس!!

إذا كان ذلك كذلك فلماذا خرجت إسرائيل من سيناء بعد عدوان ٥٦ الثلاثي لقد أخرجت اضطرارا وليس رغبة ونتيجة عوامل محددة: وقفة الشعب المصري الجسور ومقاومته الباسلة في بورسعيد.

التفاف الرأي العام العالمي تأييدا لمصر وادانة للمعتدين.

الانذار السوفيتي لإسرائيل.

ضغط أمريكا طمعا في وراثة نفوذ بريطانيا وفرنسا في المنطقة.

وبالمثل فإن إسرائيل لم تنسحب من سيناء في السنوات التالية لحرب أكتوبر إلا نتيجة لهذه الحرب وحتي لا تتكرر المعارك والهزائم مرة أخري مع مصر التي قال بن جوريون "انها أكبر عدو لنا" ولذلك كان إخراج مصر من دائرة صراعها مع العرب هدفا أساسيا وقد حققت هذا في كامب ديفيد ١٩٧٨.

نقل المعركة خارج سيناء

ونعود إلي جمال حمدان ونظرته الشاملة والاستراتيجية إلي سيناء فهو لا ينظر إليها بمعزل عما يجاورها خاصة النقب الذي يصفه بأنه "سيناء فلسطين".. ويخلص من هذا إلي حقيقة يعبر عنها بقوله: إن القناة التي كانت عنق الامبراطورية في العصر الاستعماري قد أصبحت عنق مصر المستقلة.. ولكن سيناء أصبحت رقبة أخري لمصر.. من هنا يتحول المبدأ الاستراتيجي في الأمن القومي إلي الشعار الآتي: دافع عن سيناء تدافع عن القناة تدافع عن مصر جميعا موقفا ووضعا ثم يقرر مبدأ يستحق الاهتمام فيقول: "استرشادا بهذا المبدأ. وانطلاقا من ظاهرة تقلص العمق الاستراتيجي لسيناء. يتحتم علي مصر الآن ان تنقل المعركة خارج سيناء أي ان تنتقل بمصر من الدفاع إلي الهجوم كما كان المبدأ المسود في مصرالقديمة والإسلامية انه نصف النصر" هل هذا يحتاج إلي شرح وتوضيح؟ هذا ما يورده جمال حمدان بقوله: ان فرص النصر المصري كانت تزداد كلما كانت المعركة أبعد من قلب الوطن.. فقديما وفي المتوسط العام كانت معاركنا في رفح أكثر انتصارا من معاركنا في بيلوزيوم "أي بورسعيد حاليا".. مثلا انتصر قمبيز حليفا في بيلوزيوم فانفتح الطريق

أمامه إلي مصر بلا عوائق وفي الصليبيات "أي الحروب التي عرفت بالصليبية" موجة هلكت وبادت علي طريق سيناء عند سبخة البردويل فانتهي أمرها.. ولكن أخري نجحت في التسلل عبر صحراء سيناء وصحراء شرق الدلتا فهددت القاهرة حتي لزم إحراقها دفاعا.. كذلك هدد القرامطة القاهرة حينا بعد أن نجحوا في التسلل عبر الصحراء. وفيما بعد حين ظهر الخطر العثماني علي أفق الشام أسرعت مصر فخرجت كما ينبغي لها إلي ملاقاته في أقصي الشمال. لكنها هزمت في مرج دابق تقهقرت بسرعة إلي العاصمة فلم تصمد في ريدانية القاهرة.. وهكذا وهكذا."

في هذا اليوم في ٢٥ أبريل ٢٠١٣ أي بعد أكثر من ثلاثة عقود علي "تحرير سيناء" هل هذا حديث حرب؟ بالعكس انه حديث عن الدفاع في وقت تتكاثر فيه الأخطار في سيناء كما تتكاثر الأطماع.. وفي وقت تبدد فيه – كما لم يتبدد من قبل – الحلف العربي الذي حقق نصر أكتوبر وفتح الطريق إلي تحرير سيناء الذي لن يكتمل إلا بتعميرها تعميرا شاملا وإلا بملئها بالبشر.. وهذه وعود كل ٢٥ أبريل ثم تمضي الذكري فلا أحد يتذكر وهذا ما لا يجوز واسلمي يا مصر .

جمال حمدان

وحرب اكتوبر فى الاستراتيجية العالمية

تعد حرب أكتوبر رابع مواجهة عسكرية عربية إسرائيلية، جاءت بعد فترة طويلة من التخطيط والاستعداد، والتي بموجبها انهارت نظرية الأمن الإسرائيلي بكل أسسها ومقوماتها، وانهارت سمعة الجيش الإسرائيلي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بأنه الجيش الذي لا يقهر، وتعتبر حرب أكتوبر ١٩٧٣ بكل المقاييس الاستراتيجية في ظل الأوضاع العالمية والإقليمية السائدة لحظة اشتعالها وموازين القوة العسكرية الإسرائيلية والعربية.. معجزة عسكرية انتزعت بها الأمة العربية النصر فاستعادت عزتها وكرامتها.

وهنا جاء دور "جمال حمدان" الذي أفنى عمره كله وقلمه للبحث في الشخصية المصرية وخصائصها وتفردها، وكان هدفه الحقيقي كما كتب في مقدمة كتابة "ما نود أن نقدمه اليوم في هذه الدراسة هو عرض منهجي علمي "لا إعلامي" بقدر الإمكان ومسح عام ولكنه شامل في حدود الممكن والمتاح، لتلك المعركة المجيدة، لا يضعها هي وحدها فقط في البؤرة وتحت المجهر، وإنما كذلك يضع الصراع المصيري كله في إطارها. نريد، بعبارة أخرى، أن نرصد القضية نفسها وبأسرها من خلال منظور المعركة ومنظارها، كأنها المنشور الذي تمر منه كل أشعتها وخيوطها لتنصب في حزمة ضوئية واحدة نهائية أو تتحلل إلى عواملها وطيوفها الأولية .

المطلوب هو ألا نحلل خيوط هذه المعركة وكفى، وإنما كذلك أن ننسجها في شبكة الصراع كله."

ويعد هذا الكتاب دراسة من الدراسات التي تميزت بالجدة والأصالة والرصانة؛ فقد تميزت ببناء علمي محكم وبتحليلات إحصائية دقيقة إلى حد بعيد؛ وتدفقت لغته بشكل سلس ومعبر وخال تمامًا من الاضطراب، فقد اعتمد فيها "حمدان" على مشاهدات عصره وقام بتحليل هذه البيانات وخرج لنا بدراسة تقييمية شاملة لمحيط معركة أكتوبر بكل أبعادها وفي أوسع أطرها، وذلك ابتداء من تطوراتها الموضعية الميدانية إلى موقعها من الاستراتيجية العالمية برمتها، مرورًا بكل أصدائها وإشعاعها وانعكاساتها العسكرية والسياسية، وكذلك نتائجها واحتمالاتها الجيوستراتيجية والجيوبولتيكية.

يقع هذا الإصدار في أحد عشر بابًا مختلفًا يرصد في كل باب أحد الجوانب والأطر الواسعة والضيقة لحرب أكتوبر، فبدأ في بابه الأول بـ" قدس الأقداس"، وهنا جسد عاشق المكان أهمية سيناء وموقعها كونها المكان التي دارت عليه هذه الملحمة وكموضع لأحداث خطيرة ومهمة على مدى العصور، سواء للمصريين أو للعالم أجمع، بحكم التحامها كحلقة وصل بين مصر الإفريقية وقارة آسيا كلها. كما يعرض المعلومات الإحصائية حول البشر على أرضها وطبيعتها الديموغرافية، كذلك قام "حمدان" بالتركيز في هذا الفصل على شبكة سيناء الاستراتيجية ومحاور وخطوط دفاعها التي تحدد معالمها كمسرح قتال وترسم الهيكل القاعدي في جغرافيتها العسكرية، ثم يخرج لنا بمصلح جديد ومعنى سيناء في الوجود

المصري ومستقبل الوجود في سيناء، ثم يأتي الفصل الثاني وما بعده يدور حول المعركة: مقدماتها وخططها، ثم مراحلها العسكرية البارزة ابتداء من العبور التاريخي إلى اقتحام خط العدو، فتحرير القاعدة الأرضية العريضة في غرب سيناء، وأخيرًا عملية التسلل أو الثغرة تأكيدًا لوحدة المعركة على الجبهتين المصرية والسورية، ثم يستكمل العرض مباشرة ودون انقطاع بتحليل مركز المعركة السورية، فيحدد المسرح الطبيعي ثم تطورات المعركة ومن ثم مراحلها الأخيرة.

ثم يأتي الفصل السادس الذي عنون تحت اسم "السادس من أكتوبر في الاستراتيجية العسكرية" وفيه يستعرض "حمدان" أهمية معركة أكتوبر وخطتها واستراتيجيتها ، محاولاً أن يحدد أصالة معركة أكتوبر وأوجه تفردها وريادتها، ثم يشخص مقوماتها وملامحها الأساسية، وذلك في "السلاح وأنواعه ونوعيته واستخدامه، ثم يدخل في القوة البشرية أو (العامل البشري) الذي هو أهم العوامل المؤثرة في تلك الملحمة الخالدة، من الزمن والطبيعة والتكنولوجيا، فقد حقق العرب نصرهم بفضل العامل البشرى أساسًا، كمًا وكيفًا. واستكمالاً للموضوع قام "حمدان" بدراسة مقارنة للسادس من أكتوبر في الاستراتيجية الإقليمية، فعقد مقارنة بين حرب أكتوبر وحرب الهند- باكستان، آخر حرب محلية سبقت أكتوبر أو قربها شبهًا، وذلك على كثير من النواحي العسكرية والسياسية بل والتصارع العام، ثم مضى إلى مقارنة أكثر تفصيلاً بين معركة أكتوبر ونقيضها معركة يونيو.

ثم يأتي فصل بنفس عنوان الكتاب "٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية"، وخلاله يتنقل "حمدان" من الضيق إلى الواسع، من الإطار المحلي إلى العالمي فيقول:"فأصداء ٦ أكتوبر وأضواؤه، إشعاعاته وانعكاساته، تملأ الدنيا وتلف الكرة الأرضية وتتردد في كل أرجائها.. لا أقل أنها ليست مجرد حدث عسكري مدوٍّ أو فرقعة محلية مبهرة، علينا إذن أن "نركب" المعركة في منحنيات الاستراتيجية العالمية وفي معادلة القوة الدولية.

وضع "حمدان" فصلاً عن العرب والمعركة فجاب فيه عن تأثيرات يونيو السياسية وطنيًا وقوميًا ودوليًا، ثم الانقلاب الذي أحدثه ٦ أكتوبر في دنيا العرب على المستويات الثلاثة نفسها، مغزاه، مداه، مستقبله ومستقبلهم. ولما كانت معركة أكتوبر على وجهها الآخر هي معركة بترول، فقد أفرد فصلاً كاملاً عن حرب البترول وتطوراتها وأبعادها ووقعها على العالم.

وبما أن "حمدان" قد أفرد فصلاً عن العرب والمعركة فوضع فصلاً عن العدو والمعركة، فبدأ بطرح موقف العدو المتغطرس والمفتون قبل أكتوبر، وخططه ومشاريعه ونواياه وتصريحاته وعربدته واعتدائه، حتى انقلبت الصورة بعد حرب أكتوبر وأصبح الأمر مختلفًا أمام المرآة.

يتناول حمدان، معركة أكتوبر في فصول متتالية، يستهلها مع «معركة التحرير الكبرى». إذ يوضح فيه، أنه سبقتها معركة نفسية ضارية، بذل فيها الصهاينة الجهد وبكل السبل، لإحباط مشاعر كل العرب وليس المصريين فقط. وربما ساعد على ذلك انتصارهم في عام ١٩٦٧.

ويتطرق المؤلف إلى ملامح الخطة العسكرية لمواجهة إسرائيل في عام ١٩٧٣، مشيراً إلى أنها بدأت مع ما يعرف بـــ«المبادأة»، وهو مصطلح يعني المبادأة بالهجوم.. وهو ما كان العدو يحرص على تنفيذه طوال فترة الحروب السابقة. والعنصر التالي هو «المفاجأة»، وهي المكملة للمبادأة، ومن مظاهرها:

عامل السرية المطلقة، حيث تجمعت القوات قبل أربعة أشهر من بداية المعركة، ثم تم الدفع بالقوات الرئيسة خلال ثلاثة أسابيع قبلها. كما كان توقيت بداية المعركة من عناصر المفاجأة، وهو الذي تعامل مع عدة مواقف: أنسب طقس سياسي، أنسب يوم عطلة عمل عند العدو، أنسب يوم عبور، أنسب ساعة عبور.

ويوضح حمدان مفهوم «الحرب الشاملة»، شارحاً أنها التي تجعل من المعركة العسكرية عملية ناجحة. وهو ما يعني أن كل عناصر موارد وقوة البلاد، عملت من أجل إنجاز معركة عسكرية ناجحة. وهو ما يتحقق من خلال النشاط السياسي والدبلوماسي، والنشاط الاقتصادي والاجتماعي للبلاد. وعلى الجانب العسكري، الحرب الشاملة تشمل مشاركة كل الأسلحة: دفاعية وهجومية، برية وبحرية وجوية، مشاة ومدفعية ومدرعات وصواريخ وطائرات وسفن.. إلخ.

ويؤكد المؤلف، أنه في حرب أكتوبر، كانت هناك فكرة «الحرب الطويلة» والاستعداد لها.. حيث إنه من المعروف أن اقتصاد إسرائيل لا يتحمل حرباً طويلة، لذلك فكل يوم في المعارك هو أقرب إلى النصر لنا

كعرب.. حتى مع قناعة الساسة العرب بأن الفترة الزمنية للحرب، تحددها إرادة المتحاربين معاً، وليس لطرف واحد منهما.

ويصل المؤلف إلى «خطة العبور»، والتي أجمع حولها الخبراء العالميون، أن معركة أكتوبر من أكبر معارك التاريخ العسكري الحديث. وشكل اكتساح أصعب عائق مائي، مفاجأة كبرى للعالم كله، وليس للعدو وحده. فكتبت جريدة «نيويورك تايمز»: «إن العبور المصري لقناة السويس كان بارع التخطيط والإعداد والتنفيذ..»، وهي شهادة مهمة.

ولا يغفل المؤلف، في أكثر من فصل، الحديث عن الجانب السوري في معركة أكتوبر، مبيناً أن المعركة جاءت في ظل سياسة قومية تحريرية، وتحت استراتيجية عظمى مشتركة.. ثم بقيادة عسكرية موحدة، فكان التنسيق كاملاً: توقيتاً وتخطيطاً وتصعيداً أو تخفيفاً.. وبدت الجبهة السورية مختلفة عن المصرية، من حيث الموقع الجغرافي، ومن ناحية بيئة مسرح العمليات.

فالموقع يكشف بعض الملامح، منها أن دمشق تبعد ٧٠ كيلومتراً فقط، مع قلة الكثافة السكانية في الجولان، ومقابل الجولان كثافة تماثلها من السكان على الجانب الآخر، ما يعنى بيئة فيها سكان، على العكس من الجبهة المصرية (تقريباً)

وأما عن مسرح العمليات، فيوضح حمدان، أنه لا يوجد حاجز مائي مثل القناة، وإن عرف عن الجولان أنها جغرافياً موقع قاسٍ ومعقد كمسرح

للعمليات.. ولا يسمح بالمناورة وتكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات كما في سيناء.

وفي نهاية الكتاب أفرد "حمدان" فصلاً من أهم الفصول التي تبحث في دراسة الخطط المستقبلية، فقد طرح مجموعة من الأسئلة أهمها: متى وهل ينسحب العدو من الأراضي العربية المحتلة، أهو الحل السياسي أم الحل العسكري مستقبلاً، ما معامل الأمل واليأس في عودة فلسطين.. وحول هذه الأسئلة وغيرها يدور الفصل الأول منها على القريب والثاني على البعيد، وفي الحالتين تبرز أهمية حرب أكتوبر كحجر الزاوية والأساس في هذه الخطط المستقبلية.

وفي النهاية، فهذا الكتاب هو كتاب معركة أكتوبر كما ينبغي أن يكون وكما يقرؤه المواطن الذكي والقارئ العصري المثقف، وهو عمل فكري يستوعب كل التفاصيل، وهذا ما عهدناه على "جمال حمدان" عاشق مصر، وفيلسوف المكان.

لماذا رفع جمال حمدان الفصل الأخير من كتابه عن حرب أكتوبر؟

هل اصدق أن جمال حمدان رفع الفصل الأخير من كتابه "٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية" للأسباب نفسها التي دعته إلى العزوف عن إعادة طبعه بعد نفاد طبعته الأولى في ١٩٧٤. ولا شك في أن قارئ الكتاب سيلمس فرحة الدكتور حمدان الغامرة واعتزازه الطاغي بما حدث في أكتوبر، وهو ينسبه إلى صاحب الفضل الأول فيه: الإنسان العربي المصري

والسوري الذي احتمل عبء الهزيمة والاحتلال أكثر من ست سنوات، ثم انطلق – كمارد أو إعصار – يزيح العار وينتزع النصر.

لكن هذه الفرحة الغامرة بحدث تشرين الأول أكتوبر إنما كانت مشروطة بإكماله. إن جمال حمدان يردد – أكثر من مرة – أن تشرين الأول اكتوبر كان الخطوة الأولى في مسيرة تحرير فلسطين واسترداد القدس. في فصل "النصر لمن؟"، يكتب: "إن نتائج اكتوبر هي "بالقوة" أكثر منها "بالفعل"، إنها معلّقة ومتعلقة بالمستقبل أكثر مما هي محقّقة في الواقع، وأكبر وأخطر نتائج أكتوبر هي تلك التي لم تتحقق بعد". ومرة ثانية يصف حرب تشرين الأول اكتوبر بأنها "مجرد افتتاحية، أياً كانت براعة الاستهلال ... وإذا كان لهذا من درس أو مغزى فهو أنه علينا نحن أن نكافح من أجل إعمال آثار المعركة وتحقيق نتائجها كاملة ... إن نتائج المعركة الكامنة معلقة ومشروطة بأن نستكمل نحن شوط الصراع الى نهايته"، ثم يوجز رأيه على نحو قاطع: "إن هذه المعركة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها: نصر محقق جديد".

هذه كانت رؤية جمال حمدان لتشرين الأول اكتوبر في وهج المعركة، وفي ضوء لهيبها المشتعل آخرَ ما يقف عنده الكتاب هو فك الاشتباك الأول، على الجبهة المصرية. أي انسحاب القوات الإسرائيلية من الضفة الغربية للقناة "جيب الدفرسوار".

لكننا نعرف جميعاً كيف تطورت الأمور بعدها: من فك الاشتباك الى فتح القناة إلى الإعلان – من طرف واحد بالطبع – أن حرب اكتوبر هي آخر الحروب، ثم جاءت القاضية بزيارة القدس وما تلاها، وشحب الانتصار

العظيم في دهاليز المفاوضات والمساومات والتنازلات. ولعل هذا كله ما جعل الاستاذ يرفع الفصل الأخير من كتابه، ويعزف عن إعادة طبعه. ومن حقنا أن نستنتج أنه بقدر ما كان فرحه بأكتوبر غامراً، قدر ما كان ابتئاسه عظيماً بما آل إليه، ولعل هذا أيضاً ما زاد من عزلته وعكوفه واعتزاله "الناس وما يعبدون"!

ومن الانصاف للاستاذ الراحل أن نسوق - في كلمات قليلة موجزة - بعض آرائه في ما حدث بعد أكتوبر، نصوصاً قليلة مما كتبه بين ١٩٨٠ و١٩٨٤، نتركها للقارئ من دون تعليق:

في ١٩٨٠، في تقديم الجزء الأول "من شخصية مصر" نقرأ: "مصر بالذات محكوم عليها بالعروبة والزعامة، ولكن أيضاً بتحرير فلسطين، وإلا فبالإعدام، فمصر لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها أو تنفوها عن نفسها حتى لو أرادت. كيف؟ وهي إذا نكصت عن استرداد فلسطين العربية كاملة من البحر إلى النهر، وهادت وهادنت وخانت وحكمت عليها بالضياع، فقد حكمت أيضاً على نفسها بالإعدام، وبالانتحار، وسوف تخسر نفسها ورصيدها. الماضي كالمستقبل، التاريخ والجغرافيا".

لكن مصر، رغم ثلاثية النكبة، فالنكسة فالكارثة العظمى، لا يمكن أن تركع أو تستسلم للعدو تحت أي شعار زائف أو ستار كاذب، ومصر مستحيل أن تكون خائنة لنفسها ولشقيقاتها، وليس فيها مكان لخائن.. أياً كان موقعه، ورغم كل شيء فإن كل انحراف إلى زوال، إن عجز الشعب المغلوب على أمره عن كسحه إلى سلة قاذورات التاريخ، فلسوف يفعلها التاريخ بنفسه...". في طبعة ١٩٨٣ من "استراتيجية الاستعمار والتحرير"،

وبعد أن يحلّل ملامح إسرائيل، علمياً وموضوعياً، ينتهي جمال حمدان إلى القول: "لا شك أن إسرائيل هي أخطر تحديات الاستعمار في التاريخ العربي، ولعلها أعلى مراحله في الوطن العربي، بمثل ما أن الصهيونية العالمية هي أعلى مراحل الامبريالية العالمية".

في الجزء الرابع من "شخصية مصر" الصادر في ١٩٨٤ يكتب جمال حمدان: "فمنذ أخرجت مصر مكسورة من الصراع.. وأقيلت أو استقالت من العروبة، وعُزلت أو اعتزلت القومية العربية. فقدت مصر فجأة كل شيء، فقدت الكيان والمكان والزمان، الهوية والذات والانتماء، الاتجاه والبوصلة والخطة والاستراتيجية. دخلت مرحلة انعدام الوزن، وفقدان الاتجاه وضياع الجاذبية، وتردَّت الى دوامة التيه حتى أصبحت تدور حول نفسها في فراغ سياسي مخيف، وفي حلقة مفرغة مفزعة تتخبط فيها بين أبعادها الأربعة على غير هدى، عشوائياً وارتجالياً، وبلا دليل أو هدف. لا تعرف ما تريد بالضبط، ولا إلى أين تذهب". ومثل هذا كثير، هل نحن بحاجة لتعليق أم أن الاستاذ الراحل قال كل شيء، ووضع كل النقاط فوق كل الحروف وتحتها؟

وأخيراً، أود أن ألفت النظر إلى "سابقة" للدكتور حمدان: إنه لم يستطع أن ينشر الفصل الأخير عن عمله الشامخ "شخصية مصر"، كما كتبه، فاستبدل به نص الطبعة السابقة من الكتاب، التي صدرت في ١٩٧٠، وتحت عنوان "توضيح لا بد منه للقارئ "يعتذر الكاتب: "إلى أن يزول وجه مصر القبيح نهائياً، وكذلك وجه العرب القميء، المتنطع أيضاً، فإن من الواضح تماماً، في الوقت الحالي الرديء الساقط استحالة كتابة هذا الباب - مصر والعرب - كما ينبغي، ليس ذلك - ليثق القارئ - حرصاً على

سلامتنا أو حتى حياتنا، ولكن فقط حرصاً على سلامة وصول هذا الكتاب كله إليه – وكل لبيب بالإشارة يفهم ... ومع استحالة الكتابة والنشر هذه، ولكن أيضاً مع استحالة حذف الموضوع برمته من الكتاب تماماً، فلقد رأينا أن نعيد نشر الفصل الأصلي كما ورد في طبعته الأخيرة في ١٩٧٠ ... وإنما عذرنا، وهو أيضاً رجاؤنا، أن يكون النص بصورته الأصلية وثيقة تاريخية دامغة، مثلما هي صافعة، لكل من كان له قلب لم يزل، أو ألقى السمع وهو شهيد".

لهذا كله، أرى من المعقول أن يرفع الدكتور جمال حمدان الفصل الأخير من "٦ أكتوبر في الاستراتيجية العربية" بل إن يعزف تماماً عن إعادة طبعه.

القاهرة فى عيون جمال حمدان

في ضمن سلسلة (الكتاب للجميع) الذي توزعه جريدة المدى مجاناً بعض الصحف في العراق وفي بعض أرجاء الوطن العربي: سوريا، لبنان، مصر، الإمارات، الكويت، اقتنيت كتابا كتبه المستشرق الانكليزي ديزموند ستيورات، أقول: اقتنيت ولا أقول اشتريت او حصلت،

فهذا الكتاب أثير الى العقل والوجدان والنفس كتبه ستيورات الذي عاش وقتا طويلا في القاهرة، كتبه عام ١٩٦٤ في فصول مكثفة مكتنزة بالصورة والمعنى، عن المدينة التي اعزها حاكم مصر؛ المعز لدين الله الفاطمي، حينما اصدر أوامره لجوهر الصقلي للبدء بتشييدها، وقد قام بترجمة هذا الكتاب او هذه الفصول الأربعة عشر، الروائي والقاص المصري المعروف الراحل يحيى حقي، بلغة رشيقة راقية وحميمة، قريبة للذات وللنفس، فضلا على مقدمة هي الأخرى رائعة ووافية شافية كتبها الدكتور جمال حمدان، وقد قدم يحيى حقي ترجمته لما كتبه ستيورات عن مدينة القاهرة بين يدي احتفاء مصر بالذكرى الألفية لبناء قاهرة المعز لدين الله الفاطمي سنة ١٩٦٩.

تحتفي كثير من الأمم والشعوب بجغرافية المدن الكبرى والعواصم خاصة، من اجل إبقاء صورتها في أذهان الأجيال الجديدة، فالمدن تتغير مثلما تتغير سحنات البشر، حتى تكاد تتعرف بصعوبة على صديق فارقت بينك وبينه الأيام عقودا وسنوات، فلقد أعملت يد الزمن فيه تخريبا وتهديما، وتهتدي اليه من خلال صوته، فالأصوات على عكس السحنات لا تتغير، كذلك المدن

الكبرى تتغير، تغيرها الحضارة الجديدة وتعطيها صورة مغايرة، ومن اجل إبقاء صورتها في الأذهان كما قلت، فقد تولت جهات ثقافية دولية، ومنها اللجنة الأوروبية للثقافة التي كلفت عددا من الكتاب والباحثين والروائيين، للكتابة عن مدن بعينها، وما زال في الذاكرة تكليفها القلم المبدع الدكتور عبد الرحمن منيف، بالكتابة عن مدينة عمان، التي أمست عاصمة للملكة الأردنية الهاشمية، فقدم لنا نحن قراءه، كتابه الممتع السيري الموسوم بـــ(سيرة مدينة) حيث تولت اللجنة الأوروبية للثقافة ترجمته الى سبع لغات أوروبية، عمان التي شهدت ولادته وطفولته وصباه، مستذكرا تلك الأيام، متحدثا عن (رأس العين) الذي كان مثابة للناس وأمنا، للقادمين الى المدينة، أيام تكونها الأولى، سوقا شعبيا، وملتقى، لكن هذه العين فقدت بمرور الأيام أهميتها مع زحف المدينة نحو الغرب حتى فتئت جسرا يصل شرقي عمان عاصمة الهواشم بغربيها.

كذلك هذا الكتاب (القاهرة) الذي خطته يراعة ديزموند ستيورات الذي ذكر لنا الأستاذ باسم عبد الحميد حمودي، في مقالته في ملحق (أوراق) الذي تصدره جريدة (المدى) أسبوعياً المنشورة بتأريخ الأحد ٢٠١١/١/٢ ان ستيورات كان أستاذ الأدب الانكليزي في كلية الآداب ببغداد خمسينات القرن العشرين، وكان زميلا للأديب الفلسطيني الراحل جبرا إبراهيم جبرا وللدكتور محسن مهدي – رحمهما الله – ويوم كتب جبرا بالانكليزية روايته عن شارع الرشيد (صيادون في شارع ضيق) وترجمها محمد عصفور ونشرتها دار الآداب ببيروت – بطبعتها الثالثة عام ١٩٨٨، التي تسرد أوائل أيام جبرا في بغداد نازلا في احد فنادق شارع الرشيد، قادما من

دمشق بعد ان تعاقد مع لجنة لانتقاء الأساتذة للعمل في جامعة بغداد، كانت برئاسة فيلسوف التأريخ الدكتور عبد العزيز الدوري، واذ كتب جبرا هذه الرواية على لسان بطلها جميل فران، الذي هو جبرا ذاته، كتب ديزموند ستيورات عن بغداد روايته (الانكليزي غير المرغوب فيه) ثم رحل ستيورات الى لندن، ثم اصدر مجلة (اصوات) بالعربية والانكليزية، ثم رحل الى القاهرة، فكتب كتابه هذا (القاهرة) وترجم الكثير من روائع الأدب العربي الى القراء الأجانب.

هذا الكتاب الرصين المكثف يذكرني بالكثير من الاعمال الإبداعية والبحثية والسيرية الذاتية، واذا كان لورنس داريل، قدم ترجمته لمدينة الاسكندرية من خلال روايته الرباعية، رباعية الاسكندرية ١. جوستن، ٢. بلتازار، ٣. مونتوليف، ٤. كليا وقد كتبها داريل (٢٧ – من شباط/ ١٩١٢ – الأربعاء ٧/ تشرين الثاني/ ١٩٩٠ بالجنوب الفرنسي) أقول كتبها ترجمة لحياة عاشها الكاتب في مدينة الإسكندرية بمصر خلال سنوات الحرب العالمية الثانية/ ١٩٣٩ – ١٩٤٥) وقد استغرقت كتابتها للمدة من عام ١٩٥٧ الى ١٩٦٠ فان ستيوارت قدم لنا صورة قلمية للقاهرة، واقفا – كما ظهر لنا من خلال فصول الكتاب – عند سنة ١٩٦٤، اذ ترد إشارات وإحصاءات تعود الى تلك السنة. وهو ما تؤكده سنة نشر الكتاب عام ١٩٦٥، كما ان الكتاب يعيد الى الذهن الكتاب الرائع (خارج المكان – مذكرات) للكاتب الشاهق الدكتور ادوارد سعيد، ففيه إشارات موحية ونافذة الى سنوات صباه وشبابه الأول، والتغيرات التي طرأت على الحياة في مصر عامة والقاهرة خاصة، اثر ثورة الضباط في يوليو عام ١٩٥٢ وبدء

هجرة الكثير من الأجانب والخواجات الذين كانوا يحيون في مصر، ولهم أماكنهم المحددة في وسط البلد والمدارس الخاصة بأبناء الجاليات الأجنبية ونادي الكولف وفندق شبرد وغيرها من المعالم القاهرية، التي طالتها يد التغيير، كما ان هذا العمل التوثيقي التاريخي لنشأة القاهرة وبنائها انما يعيد للذاكرة – كذلك – رواية (قشتمر) للروائي النوبلي العملاق نجيب محفوظ، ورواية (عمارة يعقوبيان) للروائي المصري المعروف علاء الأسواني، وقد ظهر ذلك باجلى صورة في الفصل السادس الموسوم بـــ(القاهرة.. الارستقراطية) إذا لم تكن للطبقة الوسطى قبل أعوام اية سطوة ولم يحظوا بالسكنى في المباني والشقق الفخمة الا قليلا، فقد كانت موجودة وقتذاك ارستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الأمور، ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر الى الخارج معظم الارستقراطيين والإقطاعيين كما فعل الملك السابق فاروق بن فؤاد الذي اختار العيش في مونت كارلو، وفضل البعض البقاء بعيدا عن الأضواء، ما استطاعوا بمعاش ضئيل، او بما بقي لديهم بعد التأميم والمصادرة (...) ولا يتصور كثير من هؤلاء الارستقراطيين الذين بقوا إمكانية العيش خارج مصر، فهم مخلصون لها بحماسة يعسر على الذين احتلوا مراكزهم ان يدركوها.. هناك من الأجانب الذين عاشوا في البلدان العربية، فأحبوها وكتبوا عنها كتبا تنضح رقة ومحبة واعترافا بالفضل والجميل ومن هؤلاء: ديزموند ستيوارت في كتابه هذا (القاهرة) وكذلك المستشرق الايطالي (نللينو) وجون فاولز الروائي الانكليزي الذي أحب المغرب وعاش فيها ودفن عندما مات سنة ٢٠٠٦ صاحب رواية (عشيقة الضابط الفرنسي) ذائعة الصيت.

قراءة لمثلث القوة عند جمال حمدان

شرح الدكتور جمال حمدان في كتابه(نحن و أبعادنا الأربعة) فلسفة توجه مصر نحو القبلة الأسيوية بشكل مفصل فقال) فرغم أن مصر في إفريقيا موقعا، فقد كانت أبدا في آسيا وقعا،وهي في إفريقيا بالجغرافيا لكنها في آسيا بالتاريخ،وهي في إفريقيا طبيعيا لكنها بشريا في آسيا أكثر)- وأشار إلي أن العلاقات الخارجية المصرية القديمة كانت أسيوية أكثر منها إفريقية،واعتبر أن مصر هي أكثر إفريقيا أسيوية.

فالنيل في مصر لا يجري في منتصف صحراءها ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق،والمسافة بين بورسعيد وغزة تبلغ ٢٥٠ كم

في مقابل ٨٠٠ كم بين الإسكندرية ومنتصف الجبل الأخضر في ليبيا ويعني هذا أن أقرب جار لمصر إنما يقع في أسيا،فجغرافيا البر المصري جعلت لمصر علاقة حميمة مع غرب أسيا.

الذاكرة التاريخية:

علي مدار الدورات التاريخية الكبرى في التاريخ المصري القديم والمعاصر كانت تدور حركة التجارة والعلاقات والهجرات بلا انقطاع بين غرب آسيا ووادي النيل ، خاصة بين مصر والجزيرة العربية في الشمال وبين اليمن والحبشة في الجنوب ، فمثلاً هجرة الحاميين القدماء من جنوب الجزيرة إلي القرن الأفريقي وحوض النيل حتى مصر شمالاً،بينما جاءت هجرة الساميين العرب مع الإسلام إلي مصر والسودان، ويُشير حمدان إلي

انتقال جالية مصرية من الصعيد في مصر إلي مدنية الحجاز قبل الإسلام استقرارها وتوطنها بها ، وعلي مر التاريخ المصري جميع الموجات التي اكتسحت البلاد جاءت من آسيا عبر سيناء فيما عدا قليل منها جاء من الغرب مثل الفاطميين، وفي المقابل كل الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية كانت تتم علي أرض أسيوية وأخرها حرب العاشر من رمضان بينها وبين إسرائيل والتي وقع مجمل أحداثها من أجل سيناء وفيها

الحالة الدينية:

وعلي مستوي الحالة الدينية يتجلى ارتباط مصر بآسيا منذ فجر التاريخ المصري، فالفراعنة كانوا يطلقون علي طريق قنا – القصير الذي يخترق وادي الحمامات في الصحراء الشرقية ويلعب دورا حيويا في توجيه مصر الأسيوي مصطلح (طريق الآلهة) اعتقادا منهم بأنه طريق أجدادهم الأوائل ومع بزوغ فجر الأديان السماوية الكبرى في أسيا تسارعت وتيرة الترابط الديني بين مصر وأسيا ويتضح ذلك من خلال قراءة جغرافيا الأديان التوحيدية ومحاور انتشارها وتمددها، يتضح مدي تأثر مصر وتأثرها بالحالة الدينية في قارة أسيا، فمصر كانت قاعدة لموسي ومنطلقا ولعيسي ملجأ وملاذاً بينما كانت مع النبي محمد صلي الله علية وسلم هدية ونسباً .

الجغرافية السياسية المصرية:

ومن خلال جناحي الجغرافيا والتاريخ وطبيعة المكون الديني المصري يمكننا الولوج إلي فلسفة الجغرافية السياسية المصرية ومعرفة إستراتيجيتها ومحاورها المنفتحة علي المستقبل وتحديد المجال الجغرافي

الذي يجب أن تشتغل فيه، متسلحين في ذلك بقانون الجغرافيا ودرس التاريخ ومسيرة الدين.

وقد استكمل الدكتور جمال حمدان رؤية للبعد الأسيوي في الجغرافية السياسية المصرية في كتابه (إستراتيجية الاستعمار والتحرير) ووضع إحدى أهم الاستراتيجيات تعبيراً عن فلسفة التوجه الجغرافي والتاريخي المصري نحو أسيا، وطرح فكرة قيام تحالف جيواستراتيجي بين تركيا وإيران الأسيويتين ومصر الأفريقية أطلق عليه اسم مثلث القوة الإقليمي (مصر – تركيا- إيران) والذي يُمكن من خلاله صياغة توجه مصر الأسيوي في شكل إجرائي واضح ومدبب و هذا المثلث يُكسب التوجه المصري نحو أسيا لغة جيواستراتيجية واعدة،ويعتبر حمدان أن هذا المثلث سيكون من أهم مراكز القوة الطبيعية في العالم العربي والشرق الأوسط وسيكون له تجلياته الإيجابية علي الوضع الداخلي في كل من تركيا وإيران ومصر وسيغير موازين القوي في الصراع العربي الإسرائيلي

المثلث الحساس:

وتتقاطع هذه الرؤية الاستشرافية لمثلث القوة عند جمال حمدان مع رؤية الدكتور/ أحمد داود أوجلو – وزير الخارجية التركي في كتابة (العمق الاستراتيجي – موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية) الذي صدر حديثا عن مركز الجزيرة للدراسات، حيث أكد في الفصل الثالث علي أهمية هذا المثلث الإقليمي (مصر – تركيا – إيران) للسياسية التركية الخارجية المعاصرة وأنه يقع ضمن الأبعاد الجيواستراتيجية والجيو ثقافية

للدولة التركية الحديثة التي يطمع هو من خلال تفعيلها أن تتحول تركيا من دولة طرفية إلي دولة مركز عالمية ،وقد أطلق أوجلو عليه مصطلح المثلث الحساس لأمرين هما:

الأول : عند دول المثلث الثلاث (مصر ، تركيا ،إيران) تتقاطع الطرق المائية للقارة الأفروأورأسياوية الأم مع الطرق البحرية الرئيسة،ووفق تصنيف أوجلو لأهمية المضايق عالميا تُطل دول المثلث علي ثلاثة مضايق حيوية من مجموع ثمانية مضايق تتحكم في توازنات الإستراتيجيات العالمية عالمية وهي كتالي:

١- قناة السويس في مصر التي تصل قارة آسيا بإفريقيا وتربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر

٢- مضيق هرمز في إيران الذي يصل الحزام الهندي الجنوبي للقارة الأسيوية وبين شبة الجزيرة العربية ، ويصل الخليج العربي الغني بالمواد الخام مع المحيط الهندي

٣- مضيقا البوسفور والدردنيل في تركيا اللذان يربطان البحر الأسود مع البحر الأبيض المتوسط ويفصلان القارة الأوروبية عن الأسيوية

الثاني : بروز العلاقات الدولية والإقليمية القائمة علي النفط في العصر الحديث زادت من أهمية هذا المثلث

وقد استعراض أوجلو الأبعاد التاريخية لهذا المثلث منذ العهد الفرعوني والأشوري والحثيي وصولا إلي تاريخ الحقبة الناصرية في مصر والثورة الإيرانية في طهران.

.وهناك ملاحظات هامة لأوجلو حول الطبيعة السياسية لهذا المثلث الحساس منها:

١- قوي الهيمنة العالمية تنتهج إستراتيجية- الضلع الناقص - للحيلولة دون بناء المثلث، فالقوي الخارجية قبلت التعاون المصري- التركي علي حدي لكنها منزعجة من رفع مستوي التعاون الثلاثي بين الدول الثلاث في آن واحد

٢- أن نجاح عملية السلام في الشرق الأوسط لا يمكن أن تحقق نجاحا معتبراً إلا من خلال توافق دول المثلث حول رؤية جامعة لعملية السلام ،ويعتبر قيام المثلث هو ضرورة إستراتيجية يمكن أن تتقاطع حولها مصالح القوي الخارجية مع مصالح دول المثلث من زاوية إقرار سلام في النزاع العربي / الإسرائيلي،ويدلل علي ذلك من خلال التاريخ السياسي للدول الثلاث في علاقاتها مع إسرائيل فعندما كانت مصر خارج المثلث في المرحلة الناصرية كانت تنتهج سياسيات تهدد الوجود الإسرائيلي حتى عقد السبعينيات ،وإيران كذلك بعد الثمانينيات(

٣- أهمية الدور التركي في تسريع بناء المثلث وخاصة من خلال تفكيك العقبات التي تحول دون الإسراع في بناء الضلع المصري -

الإيراني لأنه يعتبر أن الدور التركي هو الدور المركزي الذي يحافظ علي توازن المثلث بحكم علاقاته المتزنة مع الضلع المصري والضلع الإيراني.

٤- بناء هذا المثلث الإقليمي ستكون لها انعكاسات سياسية بارزة علي مثلثات أصغر للقوي في ساحة الشرق الأوسط مثل المثلث (الأردني ، الفلسطيني ، اللبناني) الذي يمثل المجابهة المباشرة مع إسرائيل،

والمثلث (العراقي ، السوري ، السعودي)

ومن خلال ما تقدم نري أن حلم المثلث الإستراتيجي الذي بشر به الراحل جمال حمدان كأحد تجليات التوجه المصري نحو آسيا تُوهب له الحياة ويخرج للنور من خلال تنظير أوجلو له علي المستوي الأكاديمي في كتابه العمق الإستراتيجي ثم انتقاله للواقع السياسي المعاصر من خلال جهود وزارة الخارجية التركية تحت قيادة أوجلو التي جعلت من أولوياتها الإسراع في قيام هذا المثلث الحساس

وفي هذا الإطار من المفيد معرفة تاريخ و حجم وطبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية بين دول المثلث وردود فعل القوي العالمية المهيمنة علي هذه العلاقات، ويتضح ذلك من خلال استعراض التالي.

علاقات الأضلاع:

١-الضلع التركي – الإيراني : حقق تقدماً كبيراً في هندسة هذا المثلث من خلال تعميق العلاقات الاقتصادية والسياسية بينهما عبر العديد من الاتفاقيات الإستراتيجية فمن الناحية الاقتصادية بلغ حجم التبادل التجاري

بين البلدين حاليا أكثر من ستة مليارات يورو سنويا ومن أشهر مجالات التعاون الاقتصادي التركي – الإيراني . الاتفاقيات الخاصة بالغاز الإيراني حيث أن تركيا في حاجة إلى الغاز الإيراني لاستهلاكها المتنامي ولتعزيز موقعها الاستراتيجي لإمداد أوروبا بالغاز الإيراني.

ومن الناحية السياسية تدعم تركيا الموقف الإيراني في أحقيتها في امتلاك برنامج نووي سلمي، فطبيعة العلاقات التركية – الإيرانية منفتحة علي المستقبل.

٢- الضلع التركي – المصري : شهدت العلاقات المصرية – التركية تطوراً كبيراً في عهد حكومة العدالة والتنمية فمن الناحية الاقتصادية حيث زاد حجم التجارة العام من ٧٢٧ مليون دولار عام ٢٠٠٥ إلي ثلاثة مليارات دولار عام ٢٠٠٩، كما تزايدت الصادرات المصرية لتركيا بنحو ٣٠٠% وتم أيضاً افتتاح أول خط ملاحي بحري بينهما،وعلي المستوي الثقافي والتعليمي تم افتتاح أول مدرسة تركية في القاهرة مفتوحة أمام الطلاب المصريين والأتراك المقيمين في القاهرة ، وفي المجال العسكري شهد شرق البحر المتوسط المناورات البحرية التركية – المصرية تحت عنوان "بحر الصداقة التركية المصرية ٢٠١٠"، وهذه المناورات، هي النسخة الثانية للمناورات البحرية الأولى التي جرت في المياه الإقليمية التركية في نوفمبر ٢٠٠٩ بناءاً على اتفاقية التعاون العسكري الموقعة بين البلدين في ذات العام

٣- الضلع الإيراني – المصري : توقف قلب العلاقات المصرية – الإيرانية عن النبض وفارق الحياة عندما وقعت مصر على معاهدة السلام

بينها وبين إسرائيل في مارس/آذار ١٩٧٩ حيث بادرت طهران بقطع العلاقات الدبلوماسية مع القاهرة وتدهورت العلاقات بشكل كبير وتوقفت الصلات بين البلدين بشكل شبه تمام ماعدا بعض العلاقات الرياضية والثقافية ولكن في الأيام الأخيرة وقع حدث مهم منفتح علي المستقبل مُبشر بالخير والمنافع لمصر وإيران وهو استئناف الرحلات الجوية المباشرة بين البلدين ويقضي الاتفاق بتسيير ٢٨ رحلة جوية أسبوعيا بحد أقصى بين القاهرة وطهران وهذا الحدث يأتي بعد قطيعة في العلاقات المصرية – الإيرانية تجاوزت الثلاثين عاماً، وقد أعربت الولايات المتحدة عن أسفها لاستئناف الرحلات الجوية المباشرة بين مصر وإيران.

من خلال ما تقدم عن طبيعة العلاقات المتنوعة بين دول المثلث يتضح لنا التالي:

- مدي قوة الضلع التركي- المصري والضلع التركي- الإيراني وميل العلاقات بينهم نحو الاستقرار والاستمرار بدرجة من الدرجات.
- ويظهر لنا مدي تأزم العلاقات المصرية – الإيرانية منذ توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل ولكن استئناف الرحلات الجوية بين طهران والقاهرة ربما يفتح مرحلة إستراتيجية جديدة بين مصر وإيران تدفع في اتجاه استعادة كامل العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية بين البلدين

- تزامن إجراء المناورات البحرية بين مصر وتركيا في البحر المتوسط واستئناف الرحلات الجوية بين مصر وإيران أزعج كل من الكيان الإسرائيلي والخارجية الأمريكية.
- مجمل العلاقات بين تركيا ومصر وإيران تقتصر علي الجانب الرسمي دون الشعبي والجانب الاقتصادي دون الثقافي لكن لابد من قيام علاقات بين منظمات المجتمع المدني في الدول الثلاث للمساهمة في تحسين الصور الذهنية التاريخية لشعوب الدول الثلاث

وفي الختام تبقي هناك رسالة خاصة للخبراء السياسيين والأكاديميين المصريين والإيرانيين ليسرعوا الخطي في مسار إنجاز إصدارات أكاديمية رصينة تشرح و توضح الخيارات الجيواستراتيجية المستقبلة لعلاقاتهم السياسية والاقتصادية بدول المحيط الإقليمي المجاور وباقي الدوائر الجغرافية العالمية مثلما فعل الدكتور أحمد داود أوجلو ورفاقه في الخارجية التركية في زاوية العمل .

مصر مفتاح العالم العربى

إن سقطت سقط

فى تحليل أزمة حاضر الأمة ومستقبلها، نحن أحوج ما نكون إلى البدء بمراجعة بنية المجتمعات العربية وأن نكف عن حديث المؤامرة الذى يرفع شعار "الحق على الطليان".

قبل أكثر من ثلاثين عاما (عام ١٩٨٣) أصدر الدكتور جمال حمدان كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير». أورد فيه خريطة لما اعتبره «مراكز القوة الطبيعية فى العالم العربى والشرق الأوسط». وتحت الخريطة ذكر ما يلى: لاحظ مثلث القوة المحلى فى كل من المشرق والمغرب العربى. إذ يضم المثلث فى المشرق كلا من العراق وسوريا والسعودية. أما فى المغرب فإنه يضم المغرب والجزائر وتونس. وبين الاثنين تبرز مصر باعتبارها قطب القوة الإقليمى الأساسى فى العالم العربى. لاحظ أيضا أن مصر بدورها تمثل أحد رؤوس مثلث القوة الإقليمى فى الشرق الأوسط الذى يضم إلى جانب مصر تركيا وإيران. وهو ما وصف فى بعض الكتابات بالمثلث الذهبى.

قبل سنتين من صدور كتاب أستاذ الجغرافيا السياسية الأشهر كان الدكتور حمدان قد أصدر الجزء الثانى من مؤلفه الموسوعى «شخصية مصر». وفى فصل خصصه لشخصية مصر الاستراتيجية ذكر أن لها خاصية مميزة هى أنها كانت دائما قطب قوة وقلب إقليم. «فحتى وهى

مستعمرة محتلة، ومهما كانت أوضاعها الداخلية، فقد كانت مصر ـــ للغرابة والدهشة ـــ مركز دائرة ما وليست على هامش دائرة أخرى.. ولاشك أن هذه الصفة الجوهرية ترتد إلى جذور جغرافية أصيلة وكامنة». وفى تحليله فإن الدكتور حمدان أرجع الدور القيادى لمصر إلى موقعها الجغرافى الذى تكامل فيه الموضع مع الموقع. وفى موضع آخر من الكتاب ذكر أن مصر «أصبحت مفتاح العالم العربى، إن سقطت سقط، وإذا فتحت فتح. ولذا كان الاستعمار يركز دائما ضربته الأولى والقصوى على مصر، ثم ما بعدها فسهل أمره. وهو ما أدركته وفشلت فيه الصليبيات وتعلمه الاستعمار الحديث. فكان وقوع مصر ١٨٨٢ (تاريخ الاحتلال البريطانى) بداية النهاية لاستقلال العالم العربى. بينما جاء تحرر مصر الثورة بداية النهاية للاستعمار الغربى فى المنطقة بل وفى العالم الثالث جميعا.

فى مقابل هذه الرؤية المصرية فإن العقل الاستراتيجى الإسرائيلى رأى العالم العربى من منظور مختلف. ففى كتاب «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان» الذى أصدره فى عام ٢٠٠٣ مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وأفريقيا التابع لجامعة تل أبيب، ذكر مؤلفه العميد متقاعد موشى فرجى ما يلى: إن الاستراتيجية الإسرائيلية إزاء المنطقة العربية انطلقت من رفض فكرة انتماء المنطقة العربية إلى وحدة ثقافية وحضارية واحدة. والتعامل معها باعتبارها خليطا متنوعا من الثقافات والتعدد اللغوى والدينى والإثنى. إذ اعتادت على تصويرها على أنها فسيفساء تضم بين ظهرانيها شبكة معقدة من أشكال التعدد اللغوى والدينى والقومى ما بين عرب وفرس وأتراك أرمن وإسرائيليين وأكراد وبهائيين ودروز ويهود وبروتستانت

وكاثوليك وعلويين وصابئة وشيعة وسنة وموارنة وشركس وتركمان وآشوريين!

بالتالى ـــ أضاف المؤلف ـــ فإن المنطقة ما هى إلا مجموعة أقليات ولا يوجد تاريخ موحد يجمعها. ومن ثم يصبح التاريخ الحقيقى هو تاريخ كل أقلية على حدى. والغاية من ذلك تحقيق هدفين أساسيين هما: رفض مفهوم القومية العربية والدعوة إلى الوحدة العربية، واعتبار القومية العربية فكرة يحيطها الغموض وغير ذات موضوع ـــ الهدف الثانى هو تبرير شرعية الوجود الإسرائيلى الصهيونى فى المنطقة. إذ ما دامت تضم خليطا من القوميات والشعوب والقوميات التى لا سبيل لقيام وحدة بينها، فمن الطبيعى أن تكون لكل قومية دولتها الخاصة. وهو ما يضفى شرعية على وجود إسرائيل باعتبارها إحدى الدول القومية فى المنطقة.

استشهد المؤلف فى ذلك بكتابات أبا إيبان (وزير خارجية إسرائيل الأسبق) فى مؤلفه «صوت إسرائيل» الذى اعترض فيها على فكرة أن الشرق الأوسط يمثل وحدة ثقافية، وذكر أن العرب عاشوا دائما فى فرقة عن بعضهم، وأن فترات الوحدة القصيرة كانت تتم بقوة السلاح، ومن ثم فإن التجزئة السياسية لم يحدثها الاستعمار، لأن الروابط الثقافية والتراث التى تجمع البلاد العربية لا يمكن أن تضع الأساس للوحدة السياسية والتنظيمية.

قرأت عرضا لكتاب بعنوان «نهاية الشرق الأوسط الذى نعرفه»، للباحث الألمانى فولكر بيرتس المتخصص فى شئون الشرق الأوسط، (عين أخيرا مساعدا للمبعوث الدولى لسوريا ستيفان دى ميتسورا) ووجدت أن

عنوانه يعبر عن حقيقة بات الجميع لا يختلفون عليها، وربما اختلفوا على ما بعدها. أعنى أن ثمة اتفاقا على أن خريطة سايكس بيكو التى استمرت نحو مائة عام تخضع للتغيير الآن، والسؤال الذى تتعدد الإجابة عنه هو: كيف يكون شكل ذلك التغيير؟

ما فهمته من عرض الكتاب أن المؤلف يعتبر أنه لم يعد فى العالم العربى دولة كبرى بالمفهوم السياسى، وأن نفوذ إيران فى العالم العربى أصبح أقوى من نفوذ أى دولة فيه. وإزاء الهشاشة والضعف المهيمنين عليه فمن الصعب استمرار سياسة عدم التدخل الخارجى فى شئونه، (من جانب الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبى) وبعدما خرجت الأوضاع فى سوريا والعراق عن السيطرة فلم يعد هناك مفر من تدخل تلك القوى ووضع أسس نظام سياسى جديد يفضى إلى الاستقرار فى المنطقة، فإن المؤلف أراد أن يقول إنه أما وقد تكفل العالم العربى بتشويه حاضره وإضعافه، فإن القوى الخارجية باتت مضطرة للتدخل لصناعة مستقبله حرصا على مصالحها وتمكينها لنفوذها. ولعلى أضيف سببين آخرين للتدخل يكمن أولهما فى انزعاج الغرب الأوروبى من سيل اللاجئين القادمين من المنطقة الذى بات يتدفق على دولها، الأمر الذى اعتبره الرئيس أوباما أخيرا «تهديدا لوجود أوروبا». أما السبب الآخر فراجع إلى التهديدات التى بات يمثلها تنظيم «داعش» من خلال عملياته الإرهابية والانتحارية فى العواصم الأوروبية. وهى من العوامل التى تدفع باتجاه استدعاء التدخل الخارجى الذى نرى شواهده فى الوقت الراهن.

نهاية الشرق الأوسط المتعارف عليه وانهيار مثلثى القوة التى تحدث عنها الدكتور جمال حمدان لم تحدث فى السنوات الأخيرة التى شهدت تمزقات الدول العربية واتساع نطاق حروبها الأهلية. لكن لها تاريخا بدأ بتخلى مصر عن قيادة العالم العربى، الذى أعلن ضمنا فى الخروج على الإجماع العربى وتوقيع اتفاقية «السلام» مع إسرائيل فى عام ١٩٧٩. وتلك جريمة الرئيس الأسبق أنور السادات التى ارتكبها بحق مصر والعالم العربى، يسعفنى فى ذلك تحليل الدكتور جمال حمدان الذى سبقت الإشارة إليه وذكر فيه أن مصر مفتاح العالم العربى إن سقطت سقط، وهى العبارة التى تختزل الفكرة التى أدعيها وتؤيدها. وهى بالمناسبة تناقض رأيه الذى تبناه وذهب فيه إلى أن الجغرافيا عقدت لواء القيادة لمصر فى كل الأحوال، وقد تأثر فيه بتخصصه كأحد علماء الجغرافيا البارزين، الأمر الذى غيَّب عن ذهنه التاريخ وتفاعلاته.

إننا إذا أردنا أن نتصارح فى هذه النقطة فينبغى أن نعترف بأن الدور القيادى المصرى الذى أسهمت فيه الجغرافيا لا ريب، كان مستندا إلى قوتها الناعمة بالدرجة الأولى. فقد كانت قوة عسكرية فى بداية القرن التاسع عشر، إبان عصر محمد على باشا (١٨٠٥ ـــ ١٨٤٨)، الذى أسس الجيش والأسطول وأرسل جيوشه إلى الجزيرة العربية واليونان والشام حتى وصلت إلى الأناضول ودخلت معاقل السلطنة العثمانية فى قونية وكوتاهية. وكما أن مصر تمتعت بالقوة السياسية فى المرحلة الناصرية (١٩٥٤ ـــ ١٩٧٠) حين صارت قوة يعمل لها حساب، وفيما بين التاريخين ظلت القوة الناعمة هى الرافعة الحقيقية لدورها القيادى. إذ

تمثلت فى علمائها ومثقفيها وفنانيها وقادة نضالها الوطنى ضد الاحتلال البريطانى. والقوة التى أعنيها تقاس بمعيارين أحدهما أو كلاهما هما القوة الذاتية السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، وقوة التأثير والإشعاع فى المحيط. أما القيادة فترتبط بالعنصر الثانى بالدرجة الأولى، وفى الخبرة المصرية فإن قوة التأثير والإشعاع ظلت صاحبة الحصة الأكبر فى الحفاظ على دورها القيادى. إذ ظلت تجربتا محمد على وجمال عبدالناصر حالتين استثنائيتين فى المشهد المصرى خلال القرنين الأخيرين.

معاهدة السلام أفقدت مصر دورها السياسى فتراجع تأثيرها فى العالم العربى، وحين خرجت من الصراع فإنها حيدت قوتها العسكرية، ولأسباب طويلة ومفهومة فإنها كانت خارجة من ميزان القوة الاقتصادية، وتزامن ذلك مع تراجع قوتها الناعمة خصوصا على الصعيد الثقافى، الذى وجد منافسين له فى الدول العربية الشقيقة. وذلك التنافس شمل المجال الفنى الذى أبرزته وأنعشته ثورة الاتصال. بالتالى فلم يعد لمصر ما تنفرد به فى الوقت الراهن. وظلت ريادتها منسوبة إلى التاريخ بأكثر من تعبيرها عن الواقع الراهن.

الشاهد أن مصر حين لم يعد لديها ما تقدمه فإنها فقدت دورها القيادى. وظل المقعد شاغرا منذ ثمانينيات القرن الماضى. صحيح أن دور الدول النفطية برز خلال تلك الفترة متكئا على الثروة الاقتصادية بالدرجة الأولى، إلا أن ذلك لم يحل مشكلة القيادة، الأمر الذى أوصل العالم العربى إلى ما وصل إليه من تصدع وتشرذم. من ثم تحققت نبوءة الدكتور حمدان التى قال فيها إن سقوط مصر إيذان بسقوط العالم العربى بأسره.

الضعف الذى منى به العالم العربى حين تصدع وتشرذم تجاوز الأنظمة إلى المجتمعات العربية التى ظلت مهمشة طول الوقت، الأمر الذى أصاب الأمة بنقص المناعة، وكما يحدث لأى جسم يفقد مناعته وتتكالب عليه الأمراض والعلل، فإن السقوط الذى أدعيه فتح الأبواب واسعة لانفراط عقد المجتمع العربى واستدعاء الصراعات والخلافات السياسية والعرفية والفكرية والمذهبية والدينية. وأتاح للرهان الذى أشرت إليه فى كتاب العميد الإسرائيلى المتقاعد موشى فرجى أن يتحقق على أرض الواقع.

للباحث الإسرائيلى إسرائيل شاحاك المحلل السياسى والبارز ورئيس جمعية حقوق الإنسان فى الدولة العبرية دراسة مهمة ذكر فيها أن تفتيت العالم العربى له تاريخ يمتد لأكثر من ثلاثين عاما. إذ رصد فيها رحلة المخططات التى تناولت الموضوع منذ عام ١٩٨٢ (بعد ثلاث سنوات من توقيع مصر للمعاهدة مع إسرائيل) حين أعد الصحفى الإسرائيلى عوديد بينون وثيقة تحدثت عن تفكيك العالم العربى، نشرتها مجلة «كيفونيم» التى تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية فى شهر فبراير من ذلك العام. وظلت الفكرة تتردد بصياغات مختلفة فى العديد من الدراسات التى ذكر تاريخها وخلاصاتها، إلى أن نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى عام ٢٠١٣ تحليلا عرضت فيه سيناريو تحول ٥ دول عربية إلى ١٤ دولة.

أهم ما خلص إليه شاحاك ثلاثة أمور،

* الأول أن مخططات التقسيم يتبناها ويروج لها اليمين الإسرائيلى واليمين الأمريكى.

* الثانى أن تفتيت العالم العربى تم بفعل عوامل داخلية نابعة من هشاشة المجتمعات العربية وليس من خلال التدخلات الأجنبية.

* الثالث أن انفراط عقد العالم العربى ليس سببه الربيع العربى كما يروج البعض، لأن ذلك الربيع كان ثورة من جانب الجماهير العربية على تدهور الأوضاع فى بلادها. وهى خلاصة يصعب الاختلاف معها، وليتها تكون موضع مناقشة من جانب الذين يؤرقهم حاضر الأمة العربية ومستقبلها.

جمال حمدان

واستراتيجية الاستعمار والتحرير

فى عام ١٩٨٣ أصدر الدكتور جمال حمدان كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير». أورد فيه خريطة لما اعتبره «مراكز القوة الطبيعية فى العالم العربى والشرق الأوسط»

وهذا سرد مختصر لما جاء بالكتاب :

الباب الأول

من العصور القديمة إلى العصور الحديثة

الفصل الأول: العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديمًا قدم الإنسان, فمن الممكن أن ننظر إلى التاريخ القديم على أنه فصول متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات, لكنها كانت أقرب إلى التحركات غير الهادفة أو البدائية الغريزية منها إلى الحركات المقننة المخططة الواعية.

مع تطور المجتمع والحضارة واطّراد نمو الدولة كشكل سياسي تأخذ الحركات البشرية بالتدريج اتجاهًا واسعًا نحو الاستعمار.

الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى.

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية؛ فتأخذ لونًا محليًا خاصًّا, فهو إما الصراع بين الرمل والطين، وإما بين الاستبس والغابة، وإما بين الجبل والسهل.

فأما معادلة الرمل والطين نجدها في هجرات الرعاة وغزواتهم ابتداء من الأراميين إلى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين, إلخ .. تتواتر تلك الغزوات خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة إلى كل المناطق الزراعية المجاورة في الهلال الخصيب ووادي النيل.

أما معادلة الصراع بين الجبل والسهل فنرى رعاة الجبل يهبطون على السهول وينقضون عليها من جبال أرمينيا وكردستان إلى سهول الرافدين, ومن مرتفعات الأناضول نزل الميتاني والميدين والحيثيين على الهلال الخصيب.

أما الصراع بين الاستبس والغابة فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وترامياً، ولم يكن استعمارًا بقدر ما كان تخريبًا، ولم ينشئ دولاً أو امبراطوريات مثلما حطم دولاً وامبراطوريات.

منذ فجر التاريخ والاستبس الآسيوي يمثل إعصارًا بشريًّا بلفظ موجات بشرية متتابعة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الأراضي الزراعية الغنية التي تحف به شرقًا وغربًا.

وإذا تتبعنا موجات الاستبس سنجدها تتجه أكثر إلى الصين أكثر من الهند؛ لأن على باب الصين تقع منشوريا وهي محطة احتشاد للاستبسيين،

ولأن الصين لا تملك حائط الهيملايا السور الطبيعي العظيم الذي حمى الهند, لذلك كان على الصين أن تبني سورها الصناعي لوقف ذلك الزحف.

وهجوم الهكسوس على مصر يعتبر الموجة الوحيدة في التاريخ القديم التي استطاعت أن تضرب من قلب الاستبس بعيدًا إلى حد الوصول إلى مصر, ولكن الهكسوس أخضعوا شمال مصر فقط, ولم يلبثوا فيه طويلاً.

الفصل الثاني: العصور الوسطى

الدولة الإسلامية العربية

أبعاد الإمبراطورية

من أطراف الصين إلى أبواب فرنسا ضمت دولة العرب والإسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة إيران، إلى جانب العالم العربي بتحديده الحديث, مضافًا إلى ذلك جميعًا شبه الجزيرة الأيبرية إلا قليلاً أو المغرب العربي, وآلت كل جزر البحر ابتداء من قبرص وإقريطش وصقلية والبليار إلى النفوذ العربي.

كانت المحصلة النهائية إمبراطورية تترامى على القارات القديمة الثلاث، وتطل وتشرف على المحيطات الثلاثة: الأطلسي والهندي والهادي، أو على الأقل تتماس معها.

إمبراطورية تحررية

يجادل كثير من الكتاب الغربيين بأن هذه الدولة كانت إمبراطورية استعمارية, والحقيقة أن الدولة العربية كانت إمبراطورية تحررية, فهي

التي حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الروماني أو الفارسي واضطهاده الوثني وابتزازه المادي.

ولم تعرف الدولة عنصرية أو حاجزًا لونيًّا، بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزواج الحر, وما عرفت قط شعوبية أو حاجزًا حضاريًّا؛ حيث كانت وسطًا حضاريًّا متجانسًا مشاعًا للجميع.

بل إن نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط, فقد هاجر مركز الحكم السياسي بانتظام وترك النواة النووية في جزيرة العرب وانتقل إلى الشام ثم العراق ثم مصر وكان المغرب مركزًا آخر للقوة وكذلك الأندلس.

قواعد الإمبراطورية

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة التي بالمقياس الجغرافي والإحصائي وحدة تسبق زمانها وعصرها بقرون؟

لا شك أن جذوة الحماس الديني المتقدة هي التي ألهبت خيال المؤمنين حتى تحولت بهم إلى شعلة ملتهبة، وتحولوا هم بها إلى مشعل مضيء, لكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب مادية صلبة.

الحلقة السعيدة

لعل الحلقة السعيدة التي تحيط بقلب الجزيرة العربية (الميت) هي البداية السعيدة, فوجود الهلال الخصيب في الشمال بقطاعيه العراق والشام وهلال خصيب آخر أقل غنى في الجنوب يجمع الحسا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ثم وداي النيل في مصر, كل ذلك كفل للعرب قاعدة أرضية

عريضة واحتياطيًا عمرانيًا مكثفًا يكفل له كل عناصر القوة. ثم كان انتزاع الشام من الرومان والعراق من الفرس ثم مصر الرومانية كان ذلك كفيلاً بمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهات مع تلك الإمبراطوريات.

وكان دور الموقع مهمًا للغاية، فتوسط جزيرة العرب بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقًا استراتيجيًا خطيرًا, فالجزيرة العربية بحسب موقعها لم تكن قوة برية فقط أو بحرية فقط لكنها جمعت بين القوتين.

لا شك أن الدولة العربية بدأت في توسعاتها بريًا، لكنها بعد ذلك نزلت البحر وتسيدته تمامًا.

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الإسلام وإن بدأت قوة صحراء ورعاة تملك الخيالة والأبالة إلا أنها تحولت إلى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين -باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته.

عوامل الانحدار

والسؤال الآن: لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة في صورة أو أخرى بضع قرون؟

هناك عوامل داخلية وخارجية, فداخليًا كانت ضخامة الدولة وترامیها في حد ذاته عامل ضعف وانهيار, فمن الصعب الإمساك بهذا الجسم العملاق طويلاً بدون أن تتساقط منه أجزاء, وخاصة الأطراف, لا سيما أن جزءًا كبيرًا جدًا كان صحاري مما أعاق الحركة والاتصال وأضعف الترابط.

وأيضًا كانت الدولة العربية تجنح إلى الإفراط في الاستطالة من الشرق إلى الغرب، وإلى التفريط نسبيًّا في العمق من الشمال إلى الجنوب مما عرضها للتقصف والتقزم.

وكان للتنافر الجنسي في الدولة وتعدد الأقليات والعناصر في نسيجها ما عرضها لسلسلة متصلة من الحركات الانفصالية والتفكك، وقد أتى على الدولة العربية حين من الدهر تقاسم النفوذ فيها ثلاث أو أربع خلافات: العباسية في العراق والفاطمية في مصر والأندلس.

كما أن هناك نقطة ضعف أصيلة في كيان الدولة, فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية كان عدد السكان فيه على الإطلاق وبالنسبة إلى مساحتها محدودًا في النهاية، مما جعلها ضعيفة وغير كافية للقيام بأعباء الدولة.

أما العوامل الخارجية التي عملت على تعرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى إلى موقعها الاستراتيجي بين البر والبحر مما جعل القوى الغربية في أوروبا تتجمع لتنال منها.

الاستعمار الصليبي .. استعمار مقنع بلا قناع

من المسلم به اليوم شرقًا وغربًا أن الحملات الصليبية كانت محركاتها ودوافعها الخبيثة أساسًا علمانية مادية واقتصادية.

كانت الدولة العربية تسيطر على مجمع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وكانت تصب دخلاً ضخمًا يمثل حصيلة استثمار الموقع الجغرافي, ويمنح العرب قوة مادية وحضارية وحربية لا تقدر.

بدأت أوروبا تتطلع إلى هذا الفيض الدافق بحسد؛ فهي تريد إما المشاركة فيه وإما الانقضاض عليه, وضاعف من هذه الغيرة الملتهبة أن الدولة العربية كانت في أوج عصرها الذهبي، بينما كانت أوروبا في حضيض عصورها المظلمة.

ولا أدل على أن الحروب الصليبية كانت حروبًا اقتصادية من أنها بدأت بتمويل من كبار تجار البندقية وجنوة وبيزا.

التصفية

كانت الصليبيات درسًا حضاريًّا قبل كل شيء لأوروبا؛ فقد كانت احتكاكًا حضاريًّا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف, وستنعطف أوروبا على نفسها قليلاً أو كثيرًا لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمته من الشرق العربي حتى تخرج به في النهاية أقوى من هذا الشرق.

الاستبس الآسيوي .. التتار، المغول، الأتراك

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى، بل ربما زادت عنفًا وتخريبًا, ففي الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر, إلا أن موجة جنكيز خان ثم كوبلاي خان في القرن الثالث عشر كانت أضخم حدث في تلك المرحلة.

أما الهند فقد نالتها في القرن الحادي عشر موجة التتار الغزنويين.

المغول والغرب

في القرن الثالث عشر بدأ جنكيز خان بطرق أبواب شرق أوروبا ووسطها, وبسبب تلك الموجات سنجد أن هناك فارقًا سياسيًا بدأ ينمو بين شرق وغرب أوروبا, فقفزت غرب أوروبا إلى مبدأ القومية، بينما ظل شرق أوروبا متميعا، وما زال بعيدًا عن النضج السياسي حتى الآن, وكل ذلك نتيجة للخلط الجنسي والاجتماعي والتخلف الحضاري الذي صحب الاستبس.

الشرق الإسلامي والعربي

أول ما وصل المنطقة من برابرة العالم الإسلامي الموجة الغزنوية في القرن الحادي عشر وانتزعت فارس وما جاورها, وفي منتصف القرن نفسه ظهرت قوة السلاجقة واستطاعوا أن يقتطعوا أجزاء كثيرة من آسيا لضعف الخلافة العباسية, ثم قلبوا الحكم العربي في بغداد ودمشق.

لكن قوة السلاجقة تضعضعت تحت طرقات المغول بقيادة جينكزخان وكسر شوكة السلاجقة, ثم استطاع هولاكو دخول بغداد ونهاية الخلافة العباسية, وبعدها تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر.

وهنا نصل إلى حالة فريدة في تاريخ الشرق العربي وهي أن تواجه قوى البر والبحر في آن واحد -الكماشة، وبالفعل نجد أن الغرب الصليبي يحاول أن يحصر الشرق بين شقي الرحى، فحاول أن يتحالف مع المغول ليضع الإسلام العربي بين حلف المسيحية الأوروبية والوثنية المغولية البربرية, وأثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معًا وفي آن واحد,

فبينما ظل الصراع الصليبي مستمرًا تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز وهزت المغول في عين جالوت.

المغوليات والصليبيات

إذا قمنا بعمل مقارنة وتقييم للخطر المغولي والخطر الصليبي، فابتداء نقول: إن الصليبيات والمغوليات جغرافيًّا زحف أوروبا وآسيا وحضاريًّا خروج الزراع المستقرين والرعاة الرحل, واستراتيجيًّا قوى البحر والبر مباشرة، وأيديولوجيًّا الاستعمار الديني والوثني على الترتيب, وكان الغزو المغولي والصليبي يعتبران حلاً تقليديًّا لمشكلة ضغط السكان.

الخطر التتري المغولي كان صراعًا بدائيًّا أو بدويًّا نوعًا ما؛ إذ كان صراعًا فطريًّا بيولوجيًّا تقريبًا.

أما الصليبي فكان أكثر تطورًا وتحضرًا؛ إذ كان أيديولوجيًّا دينيًّا, فالخطر التتري المغولي كان استخرابًا، وكان الصليبي استعمارًا استيطانيًّا، كان الأول غزوًا لوجود الجيش فقط، والثاني هجرة من أجل الاستيطان، فكان مجتمعًا منقولاً من الذكور والإناث والكبار والصغار.

ومن هنا كان الأول أشد خطرًا وتخريبًا, لكنه قصير الأمد وانتهى بمجرد هزيمته, فيما كان الخطر الصليبي أشمل وأوسع جغرافيًّا وأطول تاريخيًّا وتكرر على مدى بضعة قرون.

الأتراك نحو الغرب

في الربع الأول من القرن الثالث عشر تجرثمت قوة الأتراك العثمانيين في شمال غرب الأناضول واتجه توسعهم غربًا وليس شرقًا, وذلك في البلقان دون أن يستولوا في البداية على القسطنطينية، ولم ينتصف القرن حتى كانوا يملكون ما يسمى الآن على وجه التقريب (تركيا في أوروبا), وكانت القوة التي تقف في وجههم هي دولة الصرب، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا والصرب, ووصلوا إلى الدانوب، وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع.

وفي عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد الأتراك، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت حدود الإمبراطورية العثمانية في أوروبا قد وصلت من كرواتيا إلى الدون الأسفل، وفي القرن السادس عشر سقطت المجر في أيديهم.

يمتاز الزحف العثماني

أولاً :بظاهرة القفز الضفدعية، بمعنى أنه لم يكن متصلاً أبدًا من نقطة ثم استمر في اتجاه وخط متتابع بصرامة, بل هو قد يترك منطقة في طريقه ويتخطاها إلى ما بعدها ثم يعود إلى تلك الأولى, فمثلاً قفز إلى البلقان ولم يكن قد سيطر على الأناضول جميعًا, كذلك ظل يقيم في البلقان قرنًا كاملاً قبل أن يسيطر على القسطنطينية.

ثانيًا :التوسع في أوروبا قبل التوسع في آسيا وإفريقيا، وأسقطت الدولة البيزنطية قبل أن تسقط الدولة العربية الإسلامية, وقد أعطاها هذا قاعدة أرضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية, وهذا يفسر السرعة

والبتر التي اكتسحت بهما العالم العربي. فهي لم تكن حينها مجرد قوة رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة.

ثالثًا :سنرى أن هذه أول موجة استبسية تأتي من الطريق الجنوبي الهضبي وتصل إلى أوروبا.

نحو الشرق

بعد البلقان اتجه العثمانيون إلى الشرق العربي ابتداء من العقد الثاني من القرن السادس عشر, وقد اتجه الزحف إلى مصر رأسًا عن طريق سوريا التي كانت تابعة لمصر المملوكية, وسقطت مصر في ١٥١٧, وفي ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حربية وقرصنة على المغرب العربي قد اشتدت ووصلت إلى النقطة الحرجة التي استدعت الاستغاثة بقوى الإسلام أنى وجدت، ولما كانت تركيا هي كبراها الآن فقد تدخلت بحريًّا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الأوسط.

وعند هذه النقطة يبدو غريبًا بعض الشيء أن تنجح تركيا الآن حيث فشلت مصر أو على أية حال لم تغامر, فمصر المملوكية بعد انتصاراتها الحاسمة على الصليبيين والتتار لم تستطع أو تشأ أن تساعد المغرب العربي ضد الصليبيات رغم استنجاد تونس والجزائر بها مرارًا.

استراتيجية الإمبراطورية العثمانية

أولاً: ظاهرة القفز الضفدعي

ثانيا :سقط أغلب العالم العربي وورثت تركيا معظم الدولة الإسلامية في نحو نصف قرن تقريبًا من القرن السادس عشر.

ثالثًا :وقع العالم العربي في يد الأتراك بسهولة لعدة أسباب منها: ما استمده الأتراك من قوة سياسية وعسكرية بعد أن ملكوا البلقان, والضعف والتفكك والعجز الشديد الذي وصلت إليه الدول العربية في تلك الفترة.

رابعًا :نلاحظ التناقض الكامن في تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مهما كان على منطقة حضارية زراعية ذات أصول عريقة, ولهذا سيأتي عقيمًا في إنجازاته ونتائجه.

خامسًا :جاء الأتراك في مسوح الدين الإسلامي وتحت قناعه، وفي وهج ذكريات الصليبيات مما سهل عليهم الفتح.

سادسًا :يجب أن نسجل أن الدولة العربية انتهت على يد الغزو التركي وليس على يد الغزو الصليبي, أي على يد قوة البر وليس قوة البحر.

الفصل الثالث: عصر الكشوف الجغرافية

الكشوف الجغرافيا والاستعمار

لقد ولد الاستعمار الحديث في حجر الكشوف الجغرافيا, ففي تلك الفترة خرجت أوروبا تضرب في المجهول فعادت تحمل عوالم جديدة.

قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها، فأولاً مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الصراع عن

دائرته المغلقة التقليدية حول حوض البحر المتوسط إلى أماكن وبيئات أخرى.

ولا شك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط, فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين, أما بعدها فقد أصبح العالم محيط واحد ويابس متعدد.

كان أخطر مظاهر هذه الكشوفات بروز أهمية المحيطات إلى الصدارة, فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية وانحدرت قيمة دول وموانى البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانى غرب أوروبا.

ومن الناحية السياسية أصبح الوقوع على البحار -البحر المحيط- ميزة سياسية تتمتع بها وتجني حصادها الثري الفياض, وبدأ عصر الامبراطوريات البحرية, واشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كمًّا وكيفًا أبعادًا وعمقًا, وتزيح معادلة الصراع بين البر والبحر كل المعادلات السابقة الأخرى كالاستبس والغابة والجبل والسهل إلخ .. لتصبح هي وحدها قطب الرحى في الاستراتيجية العالمية الجديدة.

دور أوروبا الغربية

لماذا خرجت أوروبا -وأوروبا الغربية بالذات- في هذا التوقيت؟

كثير من الكتاب الغربيين يحلو لهم أن يردوها إلى حيوية وتطلع غير عادي في شعوب غرب أوروبا, وإلى حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعي في الجنس, وهم بمعنى آخر يثيرون تفسيرًا عنصريًّا, لكن الحقيقة أن هناك

عوامل وراء الخروج للكشوفات، ويمكن أن نحددها في ثلاثة: حضاري وسياسي وجغرافي.

فحضاريًّا لا جدال أن الكشوفات من نتائج النهضة الأوربية، وهذه بالقطع نتيجة من نتائج الاحتكاك بالعالم العربي؛ فالحضارة انتقلت من العرب إلى أوروبا عن طريق الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس, فإسبانيا لم تعرف البارود مثلاً ولا الأسلحة النارية إلا عن طريق العرب، ونقلتها عنهم من خلال الصراع بينهم.

نقلت أوروبا التراث الحضاري العربي وطورته وبفضل ذلك التراث – وما فيه من علوم البحر بالذات– استطاعت أن تخرج إلى المحيط.

أما سياسيًّا فكانت أوروبا تعيش في عالم إقطاعي ممزق عالم الفرسان والأقنان والأمراء وعبيد الأرض, وكانت تتكون من دوقيات وبارونيات الإقطاع أو دول المدن، وكانت الحروب قد مزقتهم ولم يكن بمقدروها الخروج للكشوفات بذلك الشكل إلا بعد أن بدأت فيها جراثيم القومية الأولى والشعور بالوعي والوطنية, واتجهت نحو لم جزئيتاها السياسية في وحدات وطنية أكبر في طريقها إلى الدولة الوطنية الحديثة.

وهنا نقرر مباشرة أن الذي دفعها نحو هذا الطريق هي ضغوط القوى الخارجية متمثلاً في خطر الفايكنج من الشمال والاستبس من الشرق والعرب من الجنوب.

الصليبيات كانت أول حركة وحدت أوروبا, ويكفي أن الوحدة السياسية والكشوف الجغرافية بدأت مباشرة في إسبانيا والبرتغال بعد طرد العرب ورد فعل للصراع معهم.

إن القومية المبكرة والوحدة الوطنية التي عرفتها أوروبا مكنت لها الخروج للكشوف والاستعمار, وهي هدية غير مقصودة من العرب والشرق.

إن ما دفع بأوروبا الغربية لتقفز قفزة أوسع عبر المحيط إلى العالم الجديد هو ضغط العالم العثماني من الشرق حين أغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الأقصى حتى اضطرت أوروبا قسرًا إلى البحث عن طريق بديل.

كما كان للعامل الجغرافي عامل مهم في الكشوف؛ فالقارة كلها ليست إلا شبه جزيرة من أشباه الجزر سواحلها مترامية متعرجة, تدعمها غابات أخشاب جيدة مما سهل من عملية بناء السفن, وهذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية في غرب أوروبا, فبفضل تداخل المحيط في اليابس, انقسم اليابس إلى وحدات جغرافية طبيعية متميزة الحدود واضحة الشخصيات مما سهل تبلورها القومي ونشأة الدولة الحديثة.

ثم هناك أخيرًا الموقع المواجه للعالم الجديد المجهول.

الاستعمار البرتغالي للشرق

بدأت الكشوف في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من البرتغال وبها.

فبعد طرد المورو من أيبيريا استأنف البرتغال والإسبان صراعهم الصليبي بمده ونقله إلى المغرب العربي نفسه, فانتزع الإسبان سبتة ومليلة وأقام البرتغاليون مستعمرة على الساحل الإفريقي للمغرب، وهكذا أصبحت البرتغال في موقع يسمح لها بالمخاطرة جنوبًا في بحر الظلمات.

وكانت الرغبة العارمة في انتزاع تجارة الشرق من العرب والوصول إلى جزر التوابل بالدوارن حول اليابس الإفريقي بطريق بحري بديل, ثم كانت الرغبة الصليبية الأقوى وهي الانتقام من الإسلام وتطويقه, فالاستعمار البرتغالي والإسباني من بعده خرج أولاً كاستعمار كاثوليكي وبمباركة من البابوية وهي التي قسمت العالم الجديد بينهم.

كانت النتيجة النهائية للكشوف البرتغالية عملية أسر كامل للعرب, فالطريق البحري الجديد كان أسرًا نقليًّا للطريق البري التقليدي بحيث سرقوا الموقع الجغرافي البؤري للعرب, ومعه سرقوا تجارة الشرق وسرقوا قوتهم السياسية بالكامل, وخلال العقد الأول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الإسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لأول مرة.

وخلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند الشرقية قد اكتمل وهزم العرب في بحر العرب وفي ملقا, واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندي، وبدأوا في مطارة العرب, وفي العقد الأول من القرن السادس عشر احتلوا البحرين وظلوا بها نحو قرن, كما احتلوا مسقط وبقوا فيها نصف قرن.

وفي هذا الصراع العربي – البرتغالي في الهند تحالفت البرتغال مع الحبشة المسيحية والتي قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة, وكان التعاون بينهم قد بدأ في الواقع قبل الكشف بقرن كامل إبان الصليبيات, وكان بينهما مشروع خيالي لتحويل مجرى النيل الأزرق في الحبشة إلى البحر الأحمر لتجف مصر وتنقرض جوعًا, وقد حاولت البرتغال تنفيذ هذا الحلم بعد الكشف لكن الجغرافيا سخرت منه وبددته.

كانت استراتيجية البرتغال أن تطوق العرب من الباب الخلفي, وحاولت أن تطوقه بكماشة فكاها في المغرب وبحر العرب, وقد كان هذا جميعًا إيذانًا بنهاية الدولة العربية فبدأت الانحدار الرهيب الذي سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانيين.

لكن الإمبراطورية البرتغالية في الشرق لم تزد في الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل, ولم تمتد أبدًا على مساحات واسعة من اليابس, وحتى لو أرادت الاستعمار الاستيطاني فلم يكن لديها القوة البشرية لفعل ذلك, ففي عصرها البطولي هذا لم يكن عدد سكانها يزيد عن مليون نسمة.

ورغم أن القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيد البرتغال وإسبانيا فإن الإمبراطورية البرتغالية لم تعمر في الواقع أكثر من جيل بالكاد، وأخذت في التقلص والانكماشات وضمت إسبانيا إليها البرتغال بمستعمراتها في نهاية القرن السادس عشر.

الاستعمار الإسباني

خرجت إسبانيا إلى الكشف بعد التوحيد مباشرة, واكتمل الهيكل الأساسي لكل الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا اللاتينية في ربع قرن قبل أن ينتصف القرن السادس عشر, وهو معدل مذهل إذا عرفنا أن عدد سكان إسبانيا كان ٦ ملايين مقابل ١٢ مليون هندي.

ويمكن تفسير هذا بالفارق الحضاري والحربي بين الغزاة والوطنيين، أي: بين البارود والمدفعية وبين أسلحة المشاة البدائية, كما أن هناك تشابهًا طبيعيًّا بين ومناخيًّا كبيرًا بين هضاب أمريكا وهضبة المزيتا في الوطن.

مرحلة السقوط

كان المنافس والعدو الأكبر لإسبانيا على القارة هو فرنسا, وحاولت إسبانيا غزو فرنسا لكنها فشلت, وكذلك ستنجح هولندا في انتزاع استقلالها من إسبانيا.

ثم كانت هزيمة الأرمادا الإسبانية أمام بريطانيا ١٥٨٨ التي وضعت حدًّا كبيرًا لقوة إسبانيا البحرية, وأنهى أطماع السيادة الإسبانية, ليبدأ عصر جديد من الاستعمار البحري على يد هولندا وفرنسا وبريطانيا.

الفصل الرابع

الاستعمار البحري

خطوط عامة

بعد أن كانت أوروبا حبيسة في شبه جزيرتها في موقف دفاعي انقلب الوضع وأخذت جانب الهجوم على عوالم جديدة برمتها.

أولاً :يلاحظ في هذا الخروج أن اتجاه كل من البرتغال وإسبانيا إلى أمريكا الجنوبية, وكل من فرنسا وبريطانيا إلى أمريكا الشمالية إنما هو توجيه طبيعي يتسق إلى حد كبير مع المنطق الجغرافي وخطوط العرض وإيحاءات الموقع, وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الموطن والمهجر.

ثانيًا :كانت الوحدة القومية شرطًا أساسيًّا سابقًا مسبقًا للخروج الاستعماري؛ إذ لم يكن من الممكن القفز إلى العالم الخارجي قبل ترتيب البيت داخليًّا.

ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجاري، ومع الجميع أتت أخيرًا البورجوازية الليبرالية.

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة كبيرة تنافس الطبقة القديمة التقليدية, التي كانت تحتكر السلطة والحكم في المجتمع.

الفصل الخامس: القوى البرية والاستعمار

الروسيا

تبدأ الروسيا سياسيًّا في القرن التاسع في إطار نطاق الغابات بعدد من الإمارات الصغيرة المستقلة محمية في تضاعيف الغابات ومسطحات المستنقعات.

ولقد سقطت كييف في القرن الثالث عشر في يد المغول، واستمر حكم المغول والتتار لجزء كبير من روسيا نحو ٢٥٠ سنة حتى استطاع إيفان الأكبر من دوقية موسكو أن يضع له نهاية في أواخر القرن ١٥.

ما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت موسكو خلال قرنين من التوسع المستمر قد أخضعت جميع الإمارات الأخرى بعد أن ربطت بينها الأخطار الخارجية.

وقد كان بطرس الأكبر أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر هو الموحد الحقيقي لروسيا, ومما لا شك فيه أن دور الاستبس قد أخر الوحدة القومية في الروسيا عنها في أوروبا لفترة ما, ولكن بعد إخضاعه وضمه بدأ زحف سكاني روسي ضخم نحو الجنوب وصل إلى أقصاه في القرن التاسع عشر حين أصبح حركة عارمة تاريخية حقًا.

تمت وحدة روسيا القومية في توقيت لا يختلف كثيرًا عن أوروبا الغربية وإن تخلف قليلاً, وكما خرجت غرب أوروبا إلى الاستعمار عبر البحار غربًا وجنوبًا, خرجت روسيا بدورها في توقيت معاصر ولكن برًّا شرقًا وجنوبًا.

ويمكن أن نميز بين موجتين رئيستين من التوسع الروسي: الأولى في القرنين السادس عشر والسابع عشر، واتجهت كمثيلتها في غرب أوروبا إلى عروض شمالية باردة ومناطق شبه خالية من السكان مثل سيبريا، وكانت أقرب إلى التعمير البشري منها إلى الاستعمار, أما الموجة الثانية فاتجهت كمثيلتها -أيضًا- في غرب أوروبا إلى عروض جنوبية أدفأ

ومناطق مأهولة بدرجة أو بأخرى فكانت أقرب للاستعمار السياسي مثل تركستان والقوقاز.

الباب الثاني

قرن الاستعمار

الفصل السادس: الانقلاب الصناعي والاستعمار

عالم جديد

خلق الانقلاب الصناعي عالمًا جديدًا, ويكفي أن تاريخ الشرية قبل الصناعة وحدة واحدة، وبعده وحدة أخرى بذاتها.

وقد ترتب على الانقلاب الصناعي ثورة جذرية في النقل والمواصلات, فتقلص العالم واختزلت المسافات, وكانت النتيجة السياسية لذلك الانقلاب هي سهولة ضبط وربط الدولة من الداخل عمقًا واتساعًا, وأمكن للدول كبيرة الحجم أن تظهر, وبعد أن كانت الدولة الكبيرة الرقعة نوعًا تتعرض على بعد مئات قليلة من الأميال لحركات الانفصال والتمرد أصبحت الوحدة القومية مضمونة حتى أبعد الحدود.

والوحدات التي ولدت في عصر الانقلاب تميل إلى كونها دولاً ضخمة المساحة والحجم كألمانيا وكندا والولايات المتحدة وأستراليا, وبالتالي سيكون لها مكان خاص في ميزان القوة السياسية.

ولولا أن أتى الانقلاب الصناعي بكل أدواته ووسائله ولا سيما النقل في الوقت المناسب لما استطاعت بعض هذه الوحدات الضخمة أن تظهر, ولظهر بدلاً من كل منها عدد أكبر ومن وحدات أصغر.

ولقد مكن انقلاب المواصلات والصناعة الدول الكبرى من الظهور مهما تباعدت أطرافها في أركان المعمورة, لا سيما أن الانقلاب الصناعي خلق مستويات من القوة المادية والعسكرية لا تقارن ألبتة بكل ما سبقها.

لقد كان الصراع الاستعماري القديم يدور بين الرعاة والزراع، أما في عصر الانقلاب الصناعي فأصبح بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية، بل بين العصر الصناعي والعصر الحجري في بعض الأحيان.

الصناعة الرأسمالية والاستعمار

العصر الصناعي يعتبر مرادفًا للعصر الاستعماري, فقد خلق الانقلاب الصناعي اقتصادًا مفتوح الشهية, ينتج بالجملة ليستهلك بشراهة, ولا يمكن لأي دولة أو مجتمع أن يجد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده, وإنما يعتمد أساسًا على عملية استقطاب تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الأقاليم المتباينة والبيئات المتنافرة, إنها ببساطة محاولة لاختزال الكرة الأرضية اقتصاديًا في نقطة.

وقد خلق الانقلاب الصناعي المجتمع الذي يحض على ويؤدي إلى الاستعماركواقع وكمثال, فقد ولد الانقلاب الصناعي في إرهاصات تغيير اجتماعي من الإقطاع إلى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية, وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير إلى ثورة اجتماعية سياسية كاملة وجذرية,

فالانقلاب الصناعي تمخض عن الرأسمالية وخلق المجتمع البورجوازي الرأسمالي الذي هو في صميمه مجتمع تنافسي تملكي وتوسعي.

كما لعب الانقلاب الصناعي دورًا كبيرًا ومباشرًا في التمكين الاستعماري, فقد حرك الانقلاب ثورة ديموغرافية لم تعرف البشرية لها مثيلاً من قبل, ففي القرن التاسع عشر ارتفع سكان أوروبا من ١٨٧ مليون إلى ٤٠١ مليون في ١٩٠٠, وأصبحت أوروبا متخمة بفائض سكاني، وبضغط ذلك الفائض مع عوامل أخرى مثل الصراعات الطبقية والاضطرابات السياسية تحول بالهجرة إلى طفح بشري خارج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيًّا في المستعمرات والأقطار الجديدة.

تعمير المعتدلات: الاستعمار الاستيطاني

ينبغي أن نميز بين ظاهرتين بارزتين في القرن التاسع عشر :الأولى : هي التعمير، أي: خروج أوروبا إلى القارات والأقطار الجديدة بقصد السكنى والإقامة الدائمة، واستبدال الوطن بوطن جديد.

الثانية :الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسي بقصد الاستغلال لا التوطن فيها.

وقد بدأ التعمير الحقيقي في القارات الجديدة في ظل الانقلاب الصناعي في القرن التاسع عشر.

لقد كان الوجود الأوروبي حتى نهاية القرن الثامن عشر في القارات الجديدة سواء تعمير أو استعمار هو وجود ساحلي بحت, أما في القرن

التاسع عشر وبفضل ثورة المواصلات الجديدة غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارًا وتعميرًا.

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من أوروبا ٦٠ مليون نسمة توزعت على القارات الملائمة مناخيًّا للسكنى الأوروبية, وقد صدرت أوروبا وحدها هذا السيل لتحقيق عالمية الجنس الأبيض أو أوربة العالم، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلقت منها أوربات صغرى تدين بالولاء والتبعية لأوربا الأم.

لقد جعل الاستعمار أوروبا قلب العالم ورأسه جغرافيًّا وسياسيًّا, وفي نفس الوقت جعل الرجل الأبيض يحاصر الأجناس من خلف وقدام ومن خلاف.

صراع الأجناس

هذا الاستعمار الاستيطاني ما قام إلا على أشلاء وأنقاض السكان الأصليين في قارات المهجر, فقد صحب الهجرات الأوروبية وتبعها عمليات إبادة رهيبة عامدة أو عفوية, وصلت بهم في بعض الحالات إلى حد الانقراض.

ولكم يبدو غريبًا شاذًّا بعد هذا منطق الاستعمار: بدأ بإبادة الهنود الحمر في العالم الجديد فلما افتقد اليد العاملة نقل إليه زنوج إفريقيا بالجملة, وحين دخل إفريقيا بدأ يهجر إليها الهنود والآسيويين, ليملأ الفجوة.

الاستعمار المداري

ينقسم هذا المجال إلى دوائر ثلاثة واضحة هي: إفريقيا المدارية والعالم العربي دون المداري والشرق الأقصى الموسمي.

والسؤال هنا: لماذا تأخر استعمار المداريات إلى هذا المدى؟ ولماذا حدث حين حدث بتلك السرعة المثيرة؟

لقد طرق الاستعمار سواحل أو بعض هذه السواحل من قبل, ولكنه ظل مكتفيًا بالاستعمار الديموغرافي أو القرصنة شبه الصليبية على العالم العربي، أو بالتجارة الابتزازية مع الشرق الأقصى, وذلك لأن حضارة الانقلاب التجاري حينها لم تكن وسائل نقلها تستطيع أن تمرق به إلى داخل القارة.

ففي إفريقيا المدارية كانت طبيعة القارة إما صحراء قاحلة موحشة وإما غطاءات نباتية متكاثفة كالأسلاك الشائكة، وحتى أنهار القارة كان يصعب الملاحة فيها, فكانت بالنسبة للاستعمار صندوقًا مغلقًا رهيبًا, لكن الانقلاب الصناعي قلب هذا الوضع؛ فقد أمد أوروبا بالمفتاح الحضاري اللازم لقهر هذه البيئات الصعبة.

أما العالم العربي فلم يكن بعيدًا عن موطن الاستعمار الأوروبي, ولم يكن -أيضًا- البيئة المغلقة أو الطاردة, لكن الذي أعجز الاستعمار دونه إنما هو العامل الحضاري, فرغم كل شيء كان للشرق العربي حضارة قديمة وعريقة وظلت صامدة للضغوط الأوروبية, حتى جاء الانقلاب الصناعي ونجح في الاستعمار.

أغراض الاستعمار

لم تكن هذه العروض المدارية بمناخها الطارد للرجل الأبيض مجال للاستعمار الاستيطاني السكني, ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هي الاستعمار الاستغلالي أو الاستراتيجي, فهذه كلها مناطق قديمة العمران كثيفة السكان وبعضها عريق الحضارة, مما يكفل بهزيمة أي مشروع للاستيطان.

ومع ذلك فثمة جيوب من إفريقيا المدارية وخارج المدارية لم تنج من الاستعمار الاستيطاني في الأماكن التي تصلح لمناخ الجنس الأبيض مثل: جنوب إفريقيا والجزائر, لكن هذا شذوذ يؤكد القاعدة.

أصبح حجر المغناطيس في الاستعمار المداري في العصر الصناعي هو موارده الخام الثمينة الرخيصة زراعية ومعدنية, غابية أو سكانية, وبعد ذلك تأتي السوق المحتكرة المضمونة لتصريف منتجاته، وخاصة سلعه الرخيصة الرديئة, وسوق المستعمرات وإن كانت فقيرة في قدرتها الشرائية فهي تعوض بضخامة حجمها.

وقد احتكر الاستعمار لنفسه الصناعة والتجارة، وهي التي تدر أعلى الدخول، فيما فرض على المستعمرات الحرف الأولية الزراعة والتعدين التي لا تكاد ترد من الدخل إلا الفتات, واحتكرت أوروبا لنفسها دور مصنع العالم وأبقت على المستعمرات كمزرعة له.

العنصرية

ارتقى الاستعمار في هذه المرحلة عما كان عليه في مرحلة الموجة الأولى واستبدل بالإبادة الاسترقاق, ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسي, ومع الاستعمار الجديد استبدل بالاستعمار السياسي الاستعمار الاقتصادي.

بدأ الاستعمار في تأسيس نظريات يندى لها جبين العالم، فمن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضاري للأجناس أو تقسيم جنسي للحضارات، فزعم مرة أن الرجل الأصفر يعيش في الماضي, والأسود في الحاضر, أما الأبيض فيعيش في المستقبل.

وقد انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية إلى تصنيف بيولوجي للأجناس يميز بين الأجناس: السادة وهم البيض والأجناس الفعلة وهم الملونون, وكلاً جعل مراتب ودرجات.

الفصل السابع

نماذج من الاستعمار المداري

إفريقيا

في سنة ١٨٩٣م كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الأوروبية، وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥% في سنة ١٨٨٥ إلى ٨% في سنة ١٩١٠م.

والذي شارك في هذا التكالب هو دول أوروبا البحرية بالذات, وكان النمط السياسي متداخلاً على التوالي: مستعمرة فرنسية فبريطانية ففرنسية فألمانية ففرنسية فبريطانية وهكذا..

طبقات الاستعمار

كان لبريطانيا نصيب الأسد مسيطرة على نحو ٤٥% من سكان القارة موزعة في أماكن كلها من أغنى مناطق إفريقيا, وسيطرت فرنسا على نحو ٢١% من سكان القارة.

أما الاستعمار الصغير فتمثله إيطاليا التي خرجت بصندوق من الرمال داخلي بقدر ما هو ساحلي ويطل على البحرين المتوسط والأحمر, وتأتي البرتغال بعد ذلك بوحدتين كبيرتين, ثم بلجيكا التي لا تملك إلا الكونجو التي تبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا.

العالم العربي وضع خاص

عود على بدء

للاستعمار الأوروبي مع العالم العربي قبل الاستعمار الحديث جولات درامية ودامية سابقة, سواء في العصور الوسطى أو الحروب الصليبية، وأيضًا في العصور القديمة أيام الكلاسيكية والاستعمار اليوناني والروماني.

ويعتبر العالم العربي المنطقة الوحيدة خارج أوروبا التي تعد ندًّا كفئًا لها ومنافسًا خطيرًا حضاريًّا وحربيًّا, وكانت الصليبيات تحديدًا هي آخر مظاهر هذه الندية والتكافؤ.

بل إن العالم العربي هو المنطقة الوحيدة قبل وخارج أوروبا التي كانت في وقت ما القوة العظمى الأولى في العالم.

فكان حتمًا أن يكون اللقاء الجديد في العصر الحديث حسابًا خاصًا جدًّا؛ لأنه كان جزئيًّا تصفية حسابات قديمة مؤجلة ومتراكمة, وهذه المجابهة اتخذت بالضرورة مسحة دينية لتأخذ شكل مواجهة بين الإسلام والمسيحية، ولعل مقولة الجنرال أللنبي البريطاني في القدس: (الآن انتهت الحروب الصليبية)، ومقولة الجنرال الفرنسي جورو في دمشق: (ها قد عدنا يا صلاح الدين), أن تكون رامزة ومؤشرة بما فيه الكفاية.

إن الزحف الاستعماري في العالم العربي لم يأت دفعة واحدة، بل كان بطيئًا متسكعًا، فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة إلا في مدى ٩٠ عاما من ١٨٣٠ إلى ١٩٢٠، وقد تم هذا الزحف في ثلاث موجات.

الموجة الأولى في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وفيها وقعت الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي ١٨٣٠، وعدن في يد الاستعمار البريطاني ١٨٣٩.

الموجة الثانية في الثمانينيات حيث مدت فرنسا نفوذها من الجزائر إلى تونس ١٨٨١, واحتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢، وتوسعت بعد ذلك في السودان.

الموجة الثالثة: بدأت في العقد الثاني من القرن الحالي باقتضاض إيطاليا على ليبيا في ١٩١١, وبدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربًا حتى مراكش, واستولت فرنسا على سوريا ولبنان، وبريطانيا على فلسطين والأردن والعراق.

الاستعمار الصهيوني

الصهيونية من بدايتها حركة سياسية (الصهيونية السياسية)، ولكنها تقنعت منذ اللحظة الأولى بالدين (الصهيونية العاطفية)؛ لتخلق من رؤيا العودة إلى أرض الميعاد أيديولوجية تاريخية ودينية تجمع شتات اليهود، ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومي في غير فلسطين.

ولقد كان من المستحيل أن يتحقق هذا الحلم إلا بمساعدة الاستعمار العالمي، ومن هنا التقت الامبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخيًّا, على طريق واحد وهو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة, فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفًا مضمونًا أبدًا يخدم مصالح الاستعمار.

وقد مر تكوين إسرائيل بمرحلتين: التغلغل ثم الغزو.

الخصائص الاستعمارية

أولاً: إسرائيل كدولة ظاهرة استعمارية صرف؛ فهي قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينيًّا أو تاريخيًّا أو جنسيًّا.

ثانيًا: إسرائيل استعمار طائفي بحت, والدولة دينية صرفة, فهي تقوم على تجميع اليهود فقط.

ثالثًا: إسرائيل استعمار عنصري مطلق, فهي تعد نفسها الشعب المختار.

رابعًا: إسرائيل قطعة من الاستعمار الأوروبي فمع أن إسرائيل منصفة عدديًّا بين اليهود الغربيين الأشكناز واليهود الشرقيين السفرديم، فإن القيادة المطلقة للنصف الأول, وهي تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية.

خامسًا: إسرائيل استعمار توسعي أساسًا, وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة, وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة (من النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل)

سادسًا: إسرائيل من البداية إلى النهاية استعمار بالأصالة والوكالة معًا, فإسرائيل قامت لحساب الصهيونية العالمية ولحساب الاستعمار العالمي, وهي تمثل فاصلاً أرضيًّا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها, ونزيفًا مزمنًا في مواردها، وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير, وإسرائيل بهذا الشكل دولة مرتزقة بلا شك, ولا شك أن إسرائيل هي أخطر تحديات الاستعمار في تاريخ الوطن العربي.

الفصل الثامن:

صراع القوى في العصر الصناعي

بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته وقد اجتمع انقلابان خطيران أولهما: انتقال السيادة العالمية نهائيًّا إلى بريطانيا, بعد أن أزاحت فرنسا إلى الأبد عن الصدارة, وثانيهما: بدء الانقلاب الصناعي في بريطانيا الذي أكد زعامتها في العالم بلا منافس حقيقي, ومنذ ذلك ولمدة قرن تقريبًا ظلت القوة السياسية والمادية في العالم احتكارًا لبريطانيا.

ووصلت بريطانيا في قمة توسعها أن غطت الإمبراطورية ربع اليابس, وأن تحكم ثلث سكانه, وأن تمتد بلا استثناء في كل المناطق المناخية

والأنواع النباتية والبيئات الطبيعية والأقاليم والأنماط الجغرافية, كما انتظمت فيها تقريبًا كل الأعراق والأجناس والديانات, وإلى حد ما اللغات.

ومثل هذه الإمبراطورية بطبيعة الحال كانت نتاج السفينة البخارية وإمبراطورية عصر البخار, بغيرها ما كان يمكن أن تقوم, وإذا قامت فبغيرها ما كان يمكن أن تستمر.

وقد اكتملت سيادة بريطانيا البحرية إلى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية في العالم, وفي ظل هذه الاستراتيجية استطاعت بريطانيا أن تصبح تاجر العالم الأول مثلما جعلها الانقلاب الصناعي مصنعه الأكبر.

على أن الحروب العديدة التي خاضتها بريطانيا على القارة وفي المستعمرات عبر البحار كانت تستنزف طاقاتها بانتظام وتمتص حيويتها بالتدريج, وبخاصة الحربان العالميتان التي خرجت منهما مضعضعة برغم النصر, لتفقد في النهاية معظم الإمبراطورية ثم كلها.

الولايات المتحدة

يبدأ تاريخ الولايات المتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال عام ١٧٨٣, فقد خرجت من هذه الثورة على الاستعمار البريطاني برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة وبقوة بشرية لا تزيد على الأربعة ملايين نسمة.

وكانت تلك هي النواة النووية التي تفجرت في نمو عارم لتصل في النهاية أن تصبح أعظم قوة في العالم.

ولا شك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم لهو طفرة كبرى في تاريخ التوسعات السياسية.

فقد كان من الممكن أن تنتهي وقد تقاسمتها أكثر من دولة كما حدث في أمريكا الجنوبية, ولكن بساطة التركيب الجغرافي نسبيًا وانفساح الوحدات الطبيعية كثيرًا بالمقارنة بأمريكا الجنوبية, مع اتفاق فترة التكوين السياسي مع عصر القطار هي من العوامل التي تفسر هذه الوحدة القارية النادرة.

كما كان توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيًا وإقليميًا، فإن نموها الاقتصادي والمادي لم يأت بأقل سرعة واندفاعًا, فقد بدأت باقتصاد زراعي واسع وبمجتمع ريفي بحت مخلخل, وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم, كانت حقل أوروبا باختصار, وتمثل حضارة ريفية غير مدنية، ولكن في النصف الثاني من القرن كانت الصناعة والمدنية تثور التركيب الاقتصادي والحضاري, حتى إذا كان القرن العشرين نجدنا إزاء أعظم وأغنى دولة صناعية، وأضخم قوة حضارية حديثة, وهي التي تقود العالم.

والولايات بحكم رقعتها وامتدادها تمتاز بالتنوع الثري والغني في كافة أقاليمها الجغرافية الطبيعية، ومن ثم الاقتصادية والإنتاجية, فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية في أغلب جوانب الإنتاج إلا أقلها في المداري في الزراعة والبترول في المعادن.

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية في قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية:

أولاً: بدأت حضاريًا من حيث انتهت أوروبا.

ثانيًا: ولدت الولايات المتحدة الحديثة في ظل الانقلاب الصناعي.

ثالثًا: ليست الولايات المتحدة دولة بالمعنى الأوروبي, بل هي دولة قارة تفوق أوروبا مساحة وموارد.

وفي ضوء هذا كان لابد أن تتحول الولايات إلى عملاق وقطب غلاب من الإشعاع السياسي والنفوذ الاقتصادي, يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور في فلكها كثير من الدول، وتقع في مجالها المغنطيسي جيوبولتيكا واقتصاديًا.

الفصل التاسع: ألمانيا

الأساس الطبيعي والتاريخي

ورثت ألمانيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة الصورية منذ أنشأها شارلمان حتى حطمها نابليون.

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كانت عدد الوحدات السياسية الألمانية يزيد عن الثلاثمائة وقد اختزل في أوائل القرن التاسع عشر إلى ٣٩ وحدة.

ثم انفتح الطريق إلى الوحدة الألمانية التي بدأت باتحاد فيدرالي للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمسا, كذلك ظلت كتل ووحدات

ألمانية كثيرة خارج دولة الوحدة؛ لأنها تبلورت من قبل على تنظيم سياسي منفصل بحكم ظروفها التاريخية والجغرافيا مثل أجزاء من سويسرا.

وقد اتفق نمو الوحدة الألمانية مع عدة تطورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وتدعيمها من ناحية أخرى.

أولها: دخول السكة الحديد التي جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ.

ثانيًا: الانقلاب الصناعي ولذلك ولدت ألمانيا من البداية وهي دولة تكنولوجيا.

لم يكن مفر لهذه الدولة الجديدة أن تصطدم بالقوى الكبرى القائمة, فمنذ اللحظة الأولى كان عليها أن تواجه فرنسا المتاخمة, ولم يكن من الصعب على ألمانيا أن تجهز على فرنسا وتزيحها من صراع القمة.

كان على ألمانيا -أيضًا- أن تواجه قوى برية أضخم بكثير هي الروسيا, ورغم أن الروسيا كانت مركز الثقل السياسي في شرق أوروبا حينها وأضخم دول القارة مساحة وسكانًا, فقد كانت متخلفة حضاريًّا وماديًّا, ولم يلبث أن انتقل مركز الثقل إلى ألمانيا، بل إن ألمانيا بقوتها وحيويتها وحضارتها الشابة استطاعت أن تتغلغل في الروسيا القيصرية دولة وشعبًا.

كان على ألمانيا من الناحية الأخرى أن تواجه بريطانيا لنجد أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا وألمانيا, يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية, فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية في

ظل العصر الصناعي بكل فنونه التكنولوجية والعسكرية, وأول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة.

الفصل العاشر: النظرية العامة

في الاستراتيجية العالمية

تكلم الجغرافي الألماني الكبير راتزل في ١٩٠٠ عن قوة البر إزاء قوة البحر وتنبأ أن النصر النهائي سيذهب إلى قوة البر بفضل مواردها.

كما تكلم الأميرال ميهان عن قوة البحر، ويرى أن الغلبة في الصراع من أجل السيادة العالمية مقدرة للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها في الحركة، وإمكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار.

وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة إلى بناء قوة بحرية ضخمة تتكافأ مع قاعدتها الأرضية العظيمة من ناحية ومحيطيها الهائلين من ناحية, وطالب بحفر قناة بنما لتتحول بها من دولة ساحلين إلى دولة ساحل واحد, واعتبر أن الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحري, ورأى أن بريطانيا هي الحليف البحري الطبيعي للولايات المتحدة.

وتنبأ بعد هذا بأهمية جزر الهادي هاواي والفلبين كقواعد أمامية متقدمة للدفاع, كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبي بالنسبة لبرزخ بنما وأوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك, أي: دعا إلى الاستعمار البحري صراحة.

ومن الواضح أن جميع توصيات وآراء ميهان قد نفذت بالفعل حوالي دورة القرن في إدارة تيودور روزفلت.

نظرية ماكيندر والهارتلاند

نظر ماكندر إلى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاث فصوص ملتحمة, تحيط بها البحار من جميع نواحيها، فأطلق على هذه القارات الثلاث اسم "الجزيرة العالمية"، وأن لهذه الجزيرة العالمية قلب يمثل قوتها ومحور ارتكازها سماه بداية: منطقة الارتكاز، ثم قام بتعديل الاسم إلى: قلب العالم. Hearsitet Land

المنطقة التي اختارها ماكندر لتكون قلب العالم هي جزء من اليابسة لا يتصل بالماء، وتمتاز جغرافيًا بالحصانة الطبيعية، وكانت تاريخيًا تغزو ولا تُغزى؛ لأنها تبتعد ابتعادًا سحيقًا عن البحار والسواحل، وبالتالي تمتاز بحصانة طبيعية تامة ضد الغزو البحري, وهي من حوض الفولجا غربًا حتى سيبريا شرقًا وقلب إيران جنوبًا.

وفي المقابل عرّف ماكندر ما سماه بالهلال الخارجي Outer insular Crescent"، وهو نطاق ساحلي محيطي ضخم يغلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة أو بأخرى، والذي يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب إفريقيا وأستراليا واليابان, وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية، ويتمتع بحركة وحرية ملاحة على أوسع نطاق في المحيط العالمي.

وبين القلب البري والهلال الخارجي الجزري يعرف ماكندر نطاقًا ثالثًا سماه: "الهلال الداخلي"Inner Crescent ، وهو نطاق بري جزئيًا محيطي جزئيًا، وقد أطلق عليه فيرجيف مسمى: منطقة الارتطام Crush Zone، وهي تسمية تعبر عن طبيعة المنطقة كضحية للتصادم، وكأرض للمعركة بين القلب والهلال الخارجي، وتشمل هذه المنطقة دول تضم ألمانيا والنمسا وتركيا والهند والصين.

وتخلص ماكندر بأن:

-من يحكم شرق أوروبا يسيطر على الهارتلاند.

-من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية.

-من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم.

نقد النظرية

-أخذ على ماكيندر أنه عدل كثيرًا في حدود الهارتلاند بصورة مربكة.

-أهمل ماكندر دور الموارد السكانية؛ إذ إنه اختار منطقة الهارتلاند من منطقة أقل كثافة سكانيًا من المناطق المحيطة بها.

-قلل وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم في كفة القوى البحرية, وحين كتب ماكيندر لم يكن قوة الولايات قد اكتملت ودورها الطاغي في سياسة القوة العالمية لم يكن قد بدأ.

-الكثير من النقاد يرون أن الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر.

جمال حمدان وثورة التحرير

إنها لمفارقة من الجغرافيا مثيرة أن يستطيع مليونان ومائتا ألف ميل مربع هي كل مساحة غرب أوروبا أن تنشر نفوذها واستعمارها على أكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هي مساحة العالم المعمور وغير المعمور, فبريطانيا كانت تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة، وفرنسا ٢٢ مرة، وهولندا نحو ٥٧ مرة، وبلجيكا ٥٠ مرة، وإيطاليا ١٩ مرة.

بعد الحرب العالمية الثانية كان الاستعمار المباشر يغطي حوالي ٣٥% من مساحة العالم، وكانت أوروبا ترى فيه البلسم الشافي لكل أمراض الحرب وجراحها, وكانت تخطط للبقاء في تلك المستعمرات, وما كان يدور بخلدها أنها النهاية.

إن ما بناه الاستعمار في خمسة قرون هدمه التحرير في عقدين اثنين، فبين ١٩٤٥ – ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥% إلى ٤%, أي أن معدل سرعة المد التحريري يعادل عشرات أضعاف معدل الزحف الاستعماري.

وإذا كان القرن التاسع عشر هو قرن الاستعمار فإن القرن العشرين هو قرن التحرير, والتحرير ظاهرة صحية معدية حين تبدأ لا تتوقف.

غير أنه يقابل هذا التيار العام العالمي اتجاه محلي عكسي يمثل انتكاسة للوراء, فحين بدأ الاستعمار العالمي ينحسر بدأ في فلسطين استعمار جديد لكنه محكوم عليه قبلاً وبحتمية التاريخ أنه ولد ليموت.

جغرافية التحرير

أول تحرير حقيقي بدأ في أثناء الحرب في لبنان ١٩٤١ وسوريا ١٩٤٣, لكن الشام كانت بداية منعزلة وإرهاصات محدودة.

الموجة الآسيوية

في ١٩٤٦ منحت الولايات المتحدة الفلبين استقلالها, وفي ١٩٤٧ استقلت كل من الهند وباكستان وبورما, ثم كانت ١٩٤٩ حيث خرجت فرنسا مهزومة من حرب عصابات تحريرية فنالت كل من فيتنام ولاوي وكمبوديا استقلالها, وخرجت هولندا من إندونيسيا بعد هزيمة قاسية في حرب عصابات وأدغال.

ولا ينبغي أن نتكلم عن التحرير في آسيا دون أن نذكر دورًا غير مباشر وغير مقصود لليابان, فقد اكتسح الغزو الياباني جنوب شرق آسيا وحطم نهائيًا قداسة القوة الاستعمارية الغربية, وكان له تأثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذي رآه كل الآسيويين مهزومًا مدحورًا على أيدي آسيويين مثلهم, وقد أفسد هذا وإلى الأبد التربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار, كذلك عمد اليابانيون حين اضطروا إلى التسليم إلى إعطاء السلاح للوطنيين، كما أن الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين، ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده عسكريًا وقوميًا.

كما كانت للبيئة الآسيوية من أدغال وأحراش وغابات كثيفة وجبال حليف طبيعي لأبنائها, وكان مجالاً مثاليًا لحرب العصابات.

كما كان للموقع الجغرافي والسياسي عامل مهم فمن ناحية كانت آسيا أبعد قطاعات الاستعمار عن أوروبا، ومن ثم أصعبها منالاً وارتباطًا.

كما أنها تقع على خط الاستواء السياسي بين الكتلتين الشرقية والغربية، وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعي، وتحارب وظهرها يستند إلى أعماق الصين, ومن هنا تدفق عليها المساعدات بالأسلحة والتأييد ضد الغرب.

الموجة العربية

قافلة الحرية

بدأت طلائع موجة التحرير في العالم العربي في سوريا ولبنان في الأربعينيات وأواخرها تأخرت في الكويت والجزائر إلى الستينيات الباكرة وفي الجنوب اليمني إلى الستينيات المتأخرة.

نالت ليبيا استقلالها ١٩٥١, وفي ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيًّا بعد حرب عصابات ومقاومة مسلحة في منطقة القنال.

وفي ١٩٥٦ استقلت كلٌّ من تونس والمغرب والسودان، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله.

كما استقلت موريتانيا والصومال ١٩٦٠.

وجاء دور الجزائر ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية كلفت الجزائر مليون ونصف مليون من الشهداء.

خلاصة المسيرة

الغريب أن بقايا الاستعمار في إفريقيا العربية الآن باستثناء الجيبين الإسبانيين في المغرب, مما يمكن أن نسميه للأسف بالاستعمار الإفريقي حيث تحتل إثيوبيا كلاً من إرتريا في الشمال والصومال الإثيوبي في الجنوب, بالإضافة إلى الصومال الكيني الذي تحتله كينيا.

أما آسيا العربية فاللافت هنا أنها أصبحت المعقل الأخير لأخطر أنواع الاستعمار المتخلفة في العالم أجمع، وهو الاستعمار الصهيوني الإسرائيلي في فلسطين.

وبهذا يكون العالم العربي من أكثر وحدات العالم تخلفًا في التحرير وامتلاء ببقايا الاستعمار المتخلفة.

الظاهرة اللافتة بوضوح هي أن ما بناه الاستعمار في ٩٠ سنة باستثناء فلسطين هدمه التحرير في أقل من ٢٥ سنة.

ضوابط التحرير

إذا توقفنا نتمعن ضوابط التحرير في العالم العربي فسنلاحظ أثر الموقع الجغرافي ونوع الاستعمار بالإضافة إلى البيئة الطبيعية, فوقوع العالم العربي أقرب ما يقع إلى أوروبا كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته.

كما أن جذور الاستعمار كانت متغلغلة وعميقة؛ لأن نوعه السائد كان إما من الاستعمار الاستراتيجي كما في مصر، وإما الاستعمار الاستيطاني كما في الجزائر.

كما جاء البترول في سواحل المشرق العربي ليضيف الجانب الاستغلالي في طبيعة الاستعمار.

ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقاومة الوطنية بمزيد من القوة الضاربة.

أما بالنسبة للاستعمار الاستيطاني كما في الجزائر فهو لا يكافح فقط الاستعمار ولكنه -أيضًا- يكافح المستوطنين الذين يتحولون إلى حركة إرهابية كما حدث في الجزائر، وحاولوا أن يفرضوا تقسيم الدولة إلى دولتين مستقلتين: أحدهما أوربية على الساحل، والثانية وطنية في الداخل الصحراوي, لكن الثورة ألقت بهم بعيدًا.

روح العصر والميكانيزم

لقد تعاصرت ظاهرة التحرير عمومًا في العالم بسبب روح العصر السائدة، فقد أصبح التحرير هو أيديولوجية الشعوب التي طال كبتها, كما أن هناك عاملين رئيسين وراء هذه الروح السائدة.

العامل الأول: نمو المستعمرات, فيضطر المستعمر إلى إدخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية حتى يستفيد من المستعمرة, مما يعجل بعملية الاحتكاك الحضاري مع الوطنيين، وهو ما ينعكس عليهم نموًّا في القوة

البشرية والكفاءة الفنية، فيشتد ساعدهم وقدرتهم المادية على النضال السياسي.

العامل الثاني: انتهاء احتكار القوة العالمية في يد أوروبا الاستعمارية, فبريطانيا وفرنسا كانتا تطاردان إيطاليا وألمانيا وراء البحار, وبريطانيا كانت تطارد الجميع, إلى أن جاءت الولايات المتحدة وأرادت أن ترث الكل في صورة جديدة, مما ساعد في تحرير المستعمرات ابتداء من سوريا ولبنان إلى الجزائر وفيتنام.

التفتيت السياسي

وهي ظاهرة مؤسفة وعكسية صاحبت خروج المستعمر الأبيض، فقد لجأ قبل خروجه إلى تفتيت مناطقه السابقة، وفي إفريقيا بالذات حتى يضمن وراءه نسيجًا متهالكًا.

ولعل المثال الصارخ هو الاستعمار الفرنسي في إفريقيا الاستوائية والغربية حيث أعطت وحدتان اثنتان فقط نسلاً سياسيًّا بلغ ١٦ وحدة.

حتى العالم العربي الذي كان كلاًّ واحدًا حتى في ظل الاستعمار التركي أصبح عددًا من الدول يزيد عن العشرين دولة, بينما تمزقت الهند إلى أربع ثم خمس دول أو أكثر, والهند الصينية الفرنسية صارت ٣ دول.

معركة الأسماء

كان الاستعمار في سعيه العنيد لفرض بصمته ووصايته على ممتلكاته قد حرف أو شوه كثيرًا من أسماء مواقعها الجغرافية, أو استبدل بالأسماء الوطنية الأصيلة أسماء دخيلة من عنده.

وقد كان خليقًا بالتحرير أن يعد هذه البصمة بمثابة وصمة حقيقية في جبين الوطنية البازغة, ولذا كان طبيعيًّا أن ينقض عليها ويمحوها, وينقش فوقها أسماءه الوطنية الأصيلة.

ففي الجزائر عادت بونة عنابة, وصححت بوجي إلى بجاية، وفي المغرب عادت موجادور الصويرة, وصححت لاراش إلى العرايش.

وقد واكبت هذه المعركة ظاهرة الأعلام والأناشيد الوطنية في الدول الجديدة المتحررة.

التحرير، العالم، الاستعمار

كانت ثورة التحرير تعني للعالم الكثير، فالبنسبة للدولة المتحررة تعني ظهور قوى جديدة على الساحة السياسية (عدم الانحياز), وأيضًا خسائر الجانب الاستعماري من تغير الوزن والقوة النسبية لغرب أوروبا, ثم تغير الأوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب أوروبا.

انتهى عصر أوروبا الغربية تمامًا وتقلص دورها, وقد خرجت زعامة العالم منها إلى الأبد, وتضاءل وزنها النسبي في العالم ككل, ولا تزيد بوضعها الراهن عن كونها ذيلاً للولايات المتحدة.

وقد ساهم تقلصها إلى قوقعتها الأصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار، وألقى بها على مواردها المحلية الضيقة, ولا شك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لا زالت تخفي أو تخفف تلك الأزمة, مما يجعلها عاجلاً أو آجلاً ستواجه المزيد من الصعوبات، وقد يتجمد مستوى المعيشة فيها أو ينحدر.

الانقلاب النووى

العصر النووي

وقد أعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونجازاكي, غير أن هيروشيما وعلى بشاعتها لم تكن إلا طفولة العصر النووي, ذلك أن السلاح النووي قد تطور منذ ذلك الوقت تطورًا رهيبًا.

كانت الولايات المتحدة هي الأسبق إلى تدشين العصر النووي، ثم تلاها الاتحاد السوفيتي, وبعد ذلك لحق بهم عدد من الدول.

لكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يحتكران وحدهما نحو ٩٠% من التجارب والتفجيرات النووية, مما يجعل مصير العالم رهنًا بهاتين القوتين.

فقد تستطيع القوى النووية الصغرى أن تبدأ حربًا نووية أو عالمية لكنها تعجز عن إنهائها هذا إن تجاسرت على بدأها أصلاً.

أما القوتان الأعظم فهما وحدهما اللتان تمتلكان أن تبدآ حربًا نووية وأن تنهياها، ولكن فقط بعد أن تنهي نفسها والعالم أجمع.

الخطر النووي

الآن غواصة نووية واحدة تحمل من القوة التدميرية ما يعادل القوة التدميرية لجميع الأسلحة التي أطلقت خلال الحرب العالمية بأسرها.

وبالتحديد فإن المقدر في ١٩٨٢ أن مجموع ما تمتلكه الدول النووية في العالم تعادل قوته قوة مليون قنبلة من نوع هيروشيما.

النقطة المؤكدة أن العصر النووي لأول مرة في تاريخ الصراع البشري يضع العالم وجهًا لوجه مع الانتحار أو انقراض النوع, ومن الصعب حتى على الاستراتيجيين تصور شكل الحرب الذرية الشاملة, لكن المؤكد أنها إذا حدثت فستكون قصيرة الأمد أشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربائية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت.

في الثمانينيات وبحسب آخر تقديرات علماء الذرة والطبيعة فإن أي حرب نووية محدودة تنشب داخل أوروبا سيبلغ عدد ضحاياها ٣١٨ مليون نسمة.

أما إذا اتسعت لتشمل نصف الكرة الشمالي واندلاع حرب نووية بين العملاقين فسيبلغ عدد ضحاياها ١١٠٠مليون نسمة.

والمعنى المباشر لهذه التقديرات هو أنه ببساطة إذا اتخذت الحرب النووية أبعادًا عالمية فلن تترك على ظهر الأرض من بقايا البشرية إلا قليلا من الإفريقيين وكثيرًا من الصينيين, وبهذا تبدأ للعالم جغرافيا جنسية وسياسية جديدة تمامًا ومختلفة جذريًا عما ألف الأوروبي, ويصبح سادة الأمس توابع الغد وعبيد الأمس سادة الغد, ويكون الجنس الأبيض هو المغلوب على أمره في العائلة البشرية.

هذه الاحتمالات للمستقبل صورة رهيبة للبشرية وللأوروبي خاصة, ومن هنا جاء رد الفعل العنيف فقد جعلت الاستراتيجية النووية الحرب

مستحيلة, وجعلت من التعايش السلمي ضرورة بقائية, ومن هنا أصبحت الترسانة النووية طاقة مشلولة.

وهذا الموقف إما يحمل في طواياه الشر المستطير الذي لم يسبق له مثيل، وإما الخير الذي لا يكاد يصدق.

استراتيجية الرد المرن

كانت الولايات المتحدة هي السباقة إلى استراتيجية الرد المرن, وهي تقوم على الجمع بين الحد الأقصى من القدرة النووية الكامنة الآمنة وبين الحد الأقصى من الأسلحة التقليدية القادرة سريعة الحركة والانتقال, وإنما ينبغي أن يكون السلاح النووي الحل الأخير لا الحل الأول ولا الأوحد.

وهذه الاستراتيجية تستدعي استعدادات عسكرية خاصة نقليديًا ونوويًا, وينبغي أن تتوفر القوات الكافية القادرة على الانتقال الفوري إلى ميادين القتال والانتشار السريع فيها, بكل ما يعني هذا من قوة الطيران والبحرية ومشاة الأسطول إلخ.

أما نوويًا فإن الأساس والشرط الجوهري هو امتلاك زمام المبادأة، أي ضمان القدرة على الضربة الأولى, والتي تعطي ميزة تدميرية هائلة قد تحسم المعركة وتنهي الصراع إلى الأبد.

أما إذا ضاعت الضربة الأولى على الولايات فلابد لها أن تكون لها قدرة على امتصاصها، ثم الرد عليها بالضربة الثانية, ولتحقيق هذا لابد من تأمين مخزونها النووي بعيدًا عن أي خطر على السطح, وذلك بحفظه في

صوامع غائرة تحت الأرض أو في غواصات نووية دائبة الحركة تحت الأعماق, أو في الطائرات المحلقة أبدًا فوق السحاب.

وبهذا التوازن الجديد استردت أمريكا زمام التفوق الاستراتيجي المحقق, واشتدت من جديد ميولها ونشاطاتها الصراعية.

كوبا.. مطرقة التعايش

منذ تحولت كوبا إلى اليسار أصبحت في نظر الولايات المتحدة بمثابة خلية شيوعية في قلب جسم العالم الجديد وفي صميم نسيجه.

وحين تحولت كوبا أو أوشكت إلى قلعة للصوارخ السوفيتية يمكن أن تضرب قلب الولايات المتحدة لم يكن بد مع المواجهة المباشرة مع السوفيت.

غير أن الاتحاد السوفيتي لم ينس الدرس ولا أساء فهم معادلة التعايش الجديدة, فقد أخذ التحدي النووي جديًّا حتى انتزع السبق والتفوق نوعًا ما.

فتوصل الروس إلى الغواصة النووية وبذلك بات لكل من الجانبين يابس خارج اليابس وقارات تحت القارات أو المحيطات.

كما توصل الاتحاد السوفيتي إلى سلاح جديد استراتيجي وهو الصواريخ المضادة وبها يمكن تدمير الصواريخ العدوة وهي في صوامعها أو أثناء انطلاقها في الجو.

بهذه التطورات كان الاتحاد هو الذي تفوق هذه المرة, ولعل هذا كان من حسن حظ العالم؛ إذ لم يكن للاتحاد ميول عدوانية أو التهور الاندفاعي الاستفزازي الذي كان للولايات المتحدة في ذلك الوقت.

إعادة اكتشاف الحرب المحدود

أدركت الولايات المتحدة استحالة الحرب النووية، فالقضية لم تعد الضربة الأولى أو الثانية, وإنما القضية أنه لا ضربة أولى ولا ثانية أصلاً على الإطلاق.

ومن هنا كانت الولايات المتحدة أسبق من الاتحاد إلى اكتشاف حل المعادلة الصعبة, فسجلت السنوات الأخيرة من الستينيات زيادة هائلة في قوات الولايات المتحدة من تلك الطرز التقليدية المتخصصة, في الوقت الذي كان الاتحاد السوفيتي لا يزال يعتمد أساسًا إلى جانب الترسانة النووية على أسلحة الحرب البرية التقليدية التي تلائم استراتيجيته الكلاسيكية الدفاعية الخاضعة لجغرافيته القارية الأوراسية المتصلة الحبيسة, إلى جانب طبيعته غير الاستعمارية، وبهذا كانت تنقصه أساسًا الأسلحة التقليدية اللازمة لاستراتيجية حروب ما وراء البحار, وكانت تلك الفجوة التي استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية في العالم الثالث وقتئذ، ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذي بلغ أوجه في معركة الشرق الأوسط بالتحديد.

من الشرق الأوسط إلى الأقصى

كان في ظل هذه المعادلة الجديدة أن تمت حرب يونيو بنكستها المعروفة، ووقف الاتحاد السوفيتي عاجزًا عن مساعدة أصدقائه في مصر وسوريا إزاء العدوان الأمريكي السافر والمفضوح رغم قناع إسرائيل.

فرغم تفوق السوفيت نوويًّا في تلك المرحلة, تفوقت أمريكا تقليديًّا, ورغم التعايش السلمي فإنها انتزعت نصرًا ساحقًا في حرب محدودة, بينما افتقد أصدقاء الاتحاد السوفيتي فاعليته ولن يلبث هو أن يفقدهم بفضل هذا التعايش ذاته.

وعلى النقيض تمامًا عجزت الولايات المتحدة في فيتنام على أن تسجل نصرًا بعد حرب عقدية وحشية معترفة باستحالة تحقيقها هي أو غيرها لنصر عسكري على اليابس الآسيوي, ولقد كان للتنافس الحاد بين الصين والاتحاد السوفيتي على مساعدة فيتنام الشيوعية عامل كبير في هذا النصر، لكن المقاومة الوطنية الفدائية كانت الفيصل.

السبعينيات الوفاق الوطني

خرج الطرفان من الستينيات ودخلا السبعينيات بحساب مساو تقريبًا، فأمريكا سجلت نقطة في حرب يونيو، وسجل الاتحاد السوفيتي نقطة في فيتنام.

واتفق الغريمان اللدودان على إحلال الوفاق الثنائي محل الاستقطاب الثنائي كصيغة جديدة لا تنفي الصراع ولكن تحكمه، وذلك بمعادلة تجمع بين متناقضتي التعايش والتنافس، ولا تمنع الحروب المحلية ولكن تحكمها وتخضعها لضوابط الوفاق وحدوده.

أخذ الاتحاد السوفيتي ينمي لنفسه قوة بحرية لم يعرفها من قبل حتى وصل اليوم إلى المرتبة الأولى في الأسطول التجاري والثانية في الأسطول الحربي.

وقد ظهرت أولى علامات التحول الاستراتيجي الجديد في أواخر الستينيات وذلك ببناء حاملات الطائرات لأول مرة, ثم في تشكيل مشاة البحرية لأول مرة, ثم في تنمية فرسان الجو على أوسع نطاق.

معركة أكتوبر

كانت حرب أكتوبر موضع اختبار وتنفيذ لسياسة الوفاق الوليدة, ومع اندلاع الحرب وقف كل من الطرفين في صف أصدقائه ولأول مرة يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يقيم جسرًا جويًا لمساعدة أصدقائه العرب في وجه الجسر الجوي الذي أقامته أمريكا لمساعدة إسرائيل.

وعرض الاتحاد على الولايات فرض تسوية شاملة على الصراع المحلي في المنطقة بقوتيهما المشتركة, لكن أمريكا رفضت وانفردت بفرض التسوية الديبلوماسية وحدها ولحسابها وبشروطها.

وهكذا وفي ظل الوفاق تم إخراج السوفيت من التسوية مثلما تم إخراجهم من قبل من المنطقة.

السبعينيات المتأخرة

المد السوفيتي

هي مرحلة التفوق السوفيتي سياسيًّا وعسكريًّا بلا جدال، وباعتراف الغريم الأمريكي, فلئن كان السوفيت قد فقدوا أهم مواقعهم في العالم العربي فقد عوضوه بنجاحات محققة ونشاطات مؤثرة في المنطقة وما حولها، إضافة -أيضًا- إلى إفريقيا والشرق الأوسط, وكذلك الكاريبي وأمريكا الوسطى.

كما سقطت أفغانستان في يد السوفيت وتوسعوا فيها حتى أصبح الخليج مهددًا مباشرة لأول مرة.

وهكذا في مجمل الحساب إذا كان السوفيت قد فقدوا غرب الشرق الأوسط للأمريكيين فقد فقد هؤلاء شرقه لهم.

الردع النووي

الردع النووي هو أساس التوازن النووي, والتوازن النووي هو وحده الرادع الحقيقي عن العدوان, أما متى وكيف يمكن لهذا التوازن أن يختل فذلك في حالة واحدة وهي حين يصل أحد الطرفين إلى سلاح دفاعي محقق ضد خطر الهجوم النووي, فتفوق أحد الطرفين على الآخر في الدفاعات النووية يهز التوازن الدقيق ويخلق إغراءات الهجوم أو إمكانيات الصد.

السلام النووي

التوازن النووي هو أساس السلام العالمي، ومع الوعي بخطر السلاح النووي أدى إلى حتمية عدم استخدامه.

لكن الواقع أن السلام النووي يتألف كالبركان النائم من فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت, ومن هنا يتشعب الرأي إلى نظريتين متعارضتين تماما:

الأولى: أن الحرب النووية أصبحت مستحيلة على أساس أنه لا دفاع حقيقي مطلق أو رادع ضد الصواريخ النووية.

الثانية: لا تستبعد الحروب النووية الشاملة إن لم تكن كحل انتحاري للصراع عندما يلوح شبح الهزيمة أمام أحد الخصمين أو يستبد به الخوف أو اليأس القاتل, فبطريق الخطأ في الحسابات أو التصرف وهو ما يعرف بالحرب بطريق الصدفة أو الخطأ.

من الحرب الباردة إلى الوفاق

من بين ثورة التحرير والانقلاب وكرد فعل ومواجهة لهما كرد على الاستعمار والاستقطاب الثنائي انبثقت في الخمسينيات أول أحدث ظاهرة سياسية معاصرة وهي الحياد الإيجابي وعدم الانحياز, ومن بين الاستقطاب الثنائي وعدم الانحياز بدورهما أي بالترتيب كرد على هيمنة القوتين الأعظم وضياع المستعمرات السابقة وتصفية الامبراطورية, جاءت حركة الوحدة الأوروبية ثم الانشقاق الصيني في الستينيات كتعبير عن تفتت الكتل نوعًا ما والتحرر النسبي من سيطرة القوتين الأعظم, وأخيرًا فمن بين عدم الانحياز وتفتت الكتل وردًّا على تحديهما معًا في آن واحد جاء الانفراج أو الوفاق بين القوتين الأعظم في السبعينيات.

من أتون الحرب الثانية مباشرة خرجت الحرب الباردة لتشكل مناخ الخمسينيات وتسيطر على جو المرحلة.

كان الولاء والتماسك الكتلي شبه تام أو مطلق بمعنى أن كلاً من المعسكرين كانت صفوفه تقف خلف قيادته في تبعية كاملة لا تذمر أو تمرد.

والحقيقة أن كلا المعسكرين كان يقع عمليًا تحت الوصاية الكاملة لقيادته, يعيش في كنفها اقتصاديًا وعلى معونته ماديًا وتحت مظلته النووية عسكريًا وأمنيًا, هذا فضلاً عن الانتماءات القومية والأصول العرقية في الحالين, فكما أن أوروبا الغربية هي أم الولايات المتحدة بيولوجيًا وتاريخيًا وحضاريًا وثقافيًا فإن روسيا هي الأخت الكبرى لشرق أوروبا السلافي وحاميته التقليدية تاريخيًا.

كانت أوروبا الغربية قد خرجت من الحرب حطامًا وركامًا بالمعنى الحرفي، ولولا المساعدة الهائلة التي حقنتها بها الولايات المتحدة في شكل مشروع مارشال الشهير لما قامت على قدميها ثانية لأمد بعيد, وفي هذه المرحلة من الخطر والعجز العسكري البالغ أمام القوة السوفيتية الفائقة كانت أوروبا الغربية أشد عداء للشيوعية واستعداء عليها وأطلب بالتالي للحماية الأمريكية من رغبة الولايات المتحدة نفسها.

أما عن شرق أوروبا فيكفي أنها كانت تدين لجيوش الاتحاد بتحريرها من نير الاحتلال النازي، وقد جعله هذا يشدد قبضته عليها إلى حد التسلط التام والكبت المطلق, غير أن الاتحاد بحكم الموقع الجغرافي الملاصق

وفارق القوة والحجم الرهيب جاءت قبضته على منطقة نفوذه أشد من قبضة الولايات المتحدة على منطقة نفوذها.

كما كانت الصين الشعبية بكل ثقلها إضافة هائلة إلى تلك الكتلة.

من الحرب الباردة إلى التعايش

الستينيات عقد التعايش السلمي

كانت أزمة كوبا بكل محاذيرها ونذرها هي عامل الاختزال في العملية ونقطة الانكسار في المنحنى.

ويمكن أن نلخص عوامل التغيير ودوافعه في اثنين: بدء تفتت الكتل نسبيًا وظهور عدم الانحياز تدريجيًا.

فقد أدى ثقل الاستقطاب الثنائي الضاغط على كلتا الكتلتين إلى الرغبة في التحرر تدريجيًا والتخفف من وطأته ومن أخطار تصادمه.

فمن ناحية كانت أوروبا الغربية قد بدأت تنهض من وسط أنقاض الحرب والخراب، وقطعت شوطًا طيبًا في إعادة البناء والاقتصاد والتسلح وامتلاك القدرة النووية, وبدأت تتطلع إلى استعادة مكانتها السابقة, ووجدت نفسها بين الخطر السوفيتي والتحدي الأمريكي.

أما بالنسبة للخطر السوفيتي فهو لا يعني سوى أن أوروبا الغربية هي ميدان أي معركة قادمة، وليس هناك أدنى ضمان بالدفاع الأمريكي الحقيقي, ولهذا بدأت أوروبا تعمل على امتلاك القوة النووية الخاصة بها، كما غدت أقل من أمريكا صليبية وعدوانية واندفاعًا ضد المعسكر الشرقي .

فهرس

مقدمة ٥

من هو جمال حمدان ؟ ٧

إسهامات جمال حمدان الفكرية ١١

عبقرية وطن والملامح الخاصة لشخصية مصر ١٤

الطغيان الغاشم فى التاريخ المصرى ١٨

عبقرية الموقع ٢٠

هوية مصر وجمال حمدان ٢٣

هل فروق الجغرافيا تخالف العروبة ٢٦

محاذير الفرعونية العربية ٢٩

جمال حمدان والبعد الاقتصادى ٤٤

جمال حمدان والبعد السياسى ٥١

الفرعونية السياسية الجديدة ٥٧

سيناء فى عيون جمال حمدان ٦٠

سيناء قدس أقداس مصر ٦٤

جمال حمدان وحرب أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ٧٠

القاهرة فى عيون جمال حمدان ٨١

قراءة لمثلث القوى عند جمال حمدان ٨٥

مصر مفتاح العالم العربى إن سقطت سقط ٩٤

جمال حمدان واستراتيجية الاستعمار والتحرير ١٠٢

جمال حمدان وثورة التحرير ١٤٠

الانقلاب النووى ١٤٨